Issue 707

ذو الحجة 1446هـ

الرابطة

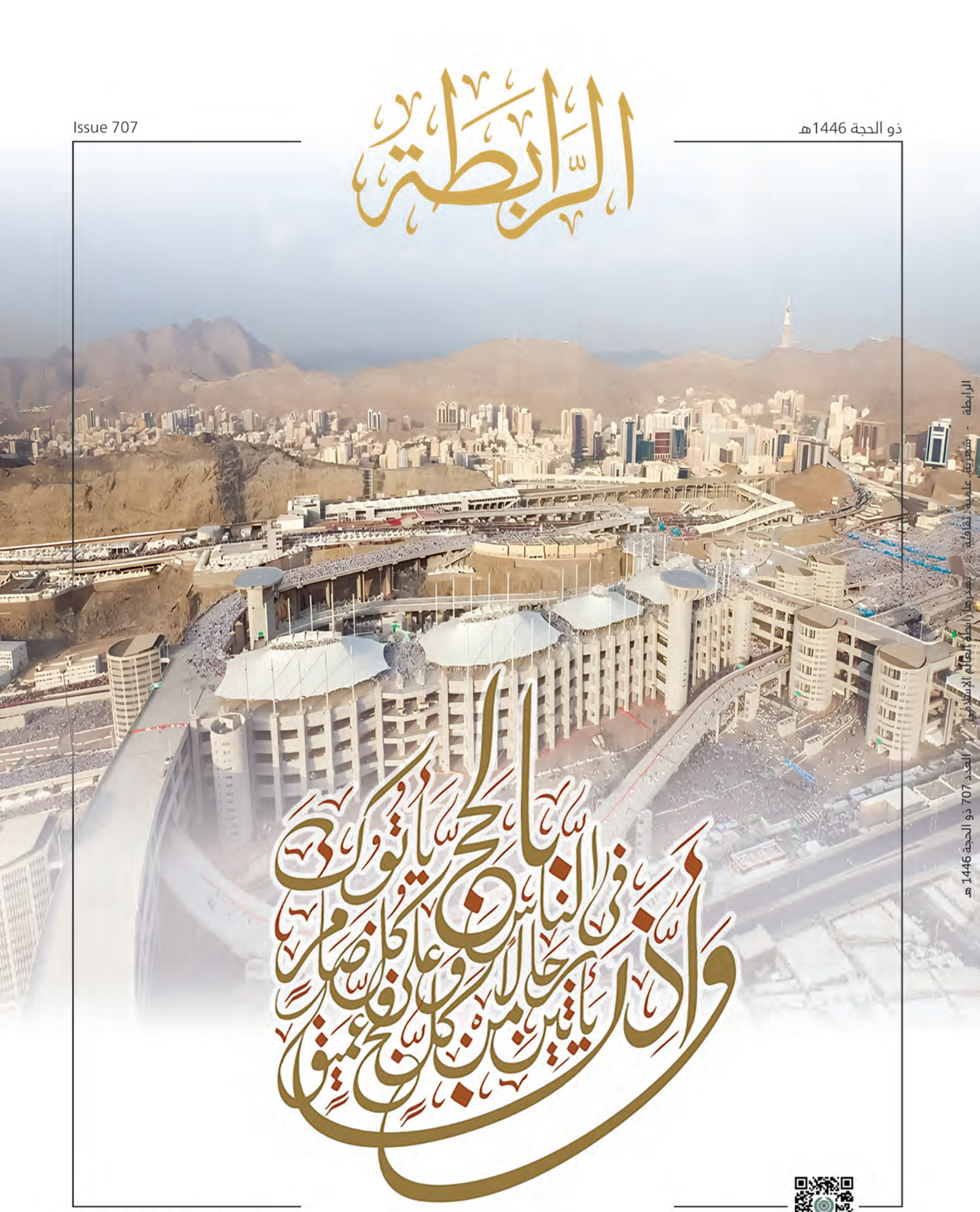

الرابطة - شهرية علمية ثقافية - تصدر عن رابطة العالم الإسلامي / العدد 707 ذو الحجة 1446 هـ

Issued by the Muslim World League

نجاح حج العام ١٤٤٦هـ: مكسب للعالم الإسلامي بأسره

■انهالت برقيات التهنئة والإشادة بالنجاح الكبير الذي تحقق لحج العام ١٤٤٦هـ من قيادات العالم الإسلامي، وبهذه المناسبة الجليلة رفَع معالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، رئيس هيئة علماء المسلمين، الشيخ الدكتور محمد بن عبدالكريم العيسى، باسم مجالس الرابطة ومجامعها وهيئاتها العالمية، التهنئة لخادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود، وصاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبدالعزيز ولي العهد رئيس مجلس الوزراء – حفظهما الله ـ.

وجاء التعبير من وفود وبعثات الحجيج عن وافر التقدير وبالغ التثمين لِما لقيَته من تكامُل الخدمات وحُسن التنظيم وانسيابيّة التنقّل في المشاعر، وهو ما وفّر الرّاحةَ التامّة لأداء نُسُكِهم بِيُسر وطُمأنينة، سائلين المولى جلّ وعلاَ أن يُجزِل مثوبةَ خادم الحرمين الشريفين وسموّ ولي عهده الأمين على ما قدّما ويُقدِّمان من خدماتٍ جليلةٍ لحجاج بيت الله الحرام، اضطلاعًا بشرَف خدمة الحرمين الشريفين ورعاية قاصديهما.

وقد شهد العالم إدارة أعظم حشود بشرية بكل اقتدار وإتقان، لتترسخ عامًا بعد عام قدرة المملكة العربية السعودية قيادةً وشعبًا وأجهزةً وإدارات، ولتثبت أن خدمة ضيوف الرحمن ليست شعارًا فحسب، بل مسؤولية دينية وحضارية تُدار وفق أعلى معايير التخطيط الحديث، والتقنيات الذكية، والخدمات الإنسانية التي تليق بكرامة الإنسان وخصوصية هذه الشعيرة العظيمة.

ولم يكن هذا النجاح وليد مصادفة، بل نتيجة رؤية واضحة وعزم مستمر في تطوير الخدمات وتحسين التجارب، لتظل مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة منارات هدى وأنموذجًا للنجاح الإداري والتنظيمي في الارتقاء بمستوى خدمة الحجاج عامًا بعد عام.

سيبقى بمشيئة الله تعالى إخلاص القيادة السعودية في القيام بواجبها في تقديم أرقى الخدمات لضيوف الرحمن وتجسيد القيم الحقيقية للإسلام من محبة وتكافل وتيسير. ويستمر وعي أبناء المملكة الذين سخّروا إمكاناتهم كافة لخدمة الحجيج، إيمانًا منهم بأن شرف رعاية الحرمين الشريفين هو أعظم مسؤولية وأكبر شرف.

وإن رابطة العالم الإسلامي، إذ تبارك هذا النجاح المشرّف، لتجدّد شكرها واعتزازها بما تبذله المملكة لخدمة الإسلام والمسلمين، وتؤكد أن هذا النجاح هو مكسب للعالم الإسلامي بأسره، ورسالة حضارية تؤكد للعالم أن هذه الأمة بخير ما دامت متمسكة بقيمها ووحدتها وتعاونها.

المحتويات

Contents

شهرية - علمية - ثقافية

أ. عبدالوهاب بن محمد الشهري | مساعد الأمين العام للاتصال المؤسّسي

أ. ياسر بن صالح الغامدي | المدير العام لإدارة المحتوى

د. عثمان أبوزيد عثمان | رئيس التحرير

د. أحمد بن حمد جيلان | المستشار الإعلامي

أ. عبدالله بن خالد باموسى | مدير التحرير

- المراسلات: مجلة الرابطة ص.ب 537 مكة المكرمة - هاتف: 00966125309387 المراسلات على عنوان المجلة باسم رئيس التحرير - البريد الإلكتروني: mwljournal@themwl.org.

- الموضوعات والمقالات التي تصل إلى مجلة «الرابطة» لا ترد إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

- الرئيس الموريتاني ود. العيسى يفتتحان متحف السيرة النبوية في نواكشوط
- أمير المدينة المنورة يدشن المرافق الحديثة للمتحف الدولي للسيرة النبوية
- على طريق الحج: مساجد تاريخية في مكة
- غولبدان بيغم: أميرة مغولية حَملتها أشواقها بحرا نحو الديار المقدسة
- من مظاهر تعظيم شعائر الله في الحرم
- خدمات الحجاج والمعتمرين: الأولوية والتميز
- الهجرة ودورها في توطين الإسلام في أوروبا
- الرضا.. درجات وصور
- غنيت مكة .. قصيدة لـ «شاعر مسيحي» تأثر بجلال منظر الحجاج

- للاطلاع على النسخة الإلكترونية للمجلة الرجاء زيارة موقع الرابطة على الإنترنت: www.themwl.org
- طبعت بمطابع تعليم الطباعة - رقم الإيداع: 343/1425 - ردمد: 1658-1695.

في إطار خطة التوسع الدولي للمتحف التابع لرابطة العالم الإسلامي

الرئيس الموريتاني ود. العيسى يفتتحان متحف السيرة النبوية في نواكشوط

نواكشوط:

■ افتتح فخامة رئيس جمهورية موريتانيا، السيد محمد ولد الغزواني، بمشاركة معالي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي، المشرف العام على متاحف السيرة النبوية والحضارة الإسلامية، فضيلة الشيخ الدكتور محمد بن عبدالكريم العيسى، متحفَ السيرة النبوية بالعاصمة الموريتانية «نواكشوط»، والذي يأتي في إطار خطة التوسّع الدولي للمتحف.

وفي كلمةٍ بهذه المناسبة، عبّر د.محمد العيسى عن سعادته بافتتاح خيرِ متحفٍ لخيرِ سيرة؛ متحف السيرة النبوية، في «نواكشوط»، منطلِقًا من مقرّه الرئيس، بالمدينة المنورة.

وأوضح معاليه أنّ للمتحف -بإشراف رابطة العالم الإسلامي- عنايةً بدلائل النبوّة بخاصة ودلائل الإيمان بعامّة، والتصدي للشبهات أيًّا كان مصدرها وباعثها.

وتطرّق فضيلته إلى جوانب من شمائل وسيرة الهادي البشير صلى الله عليه وسلم، مشدِّدًا على أنها ترسّخت في كيان كل مؤمن مهتدٍ بالهدي النبوي الكريم، سالكًا جادةَ الإسلام مع ركب الإيمان، موضحاً أن للمتحف إسهاماً مهماً في تثبيت هذا الرسوخ الإيماني من خلال تعزيز وعيه العلمي.

ولفت معاليه إلى أنّ المتحف يجسّد -بحسب الإمكان الشرعي- مَشاهدَ السيرة النبوية، لتَنقل الزائرَ -عِلميًّا- لنفحات قُدْسِها، وبهجة أُنسها، كأنّك تعيشُ في رحابها.

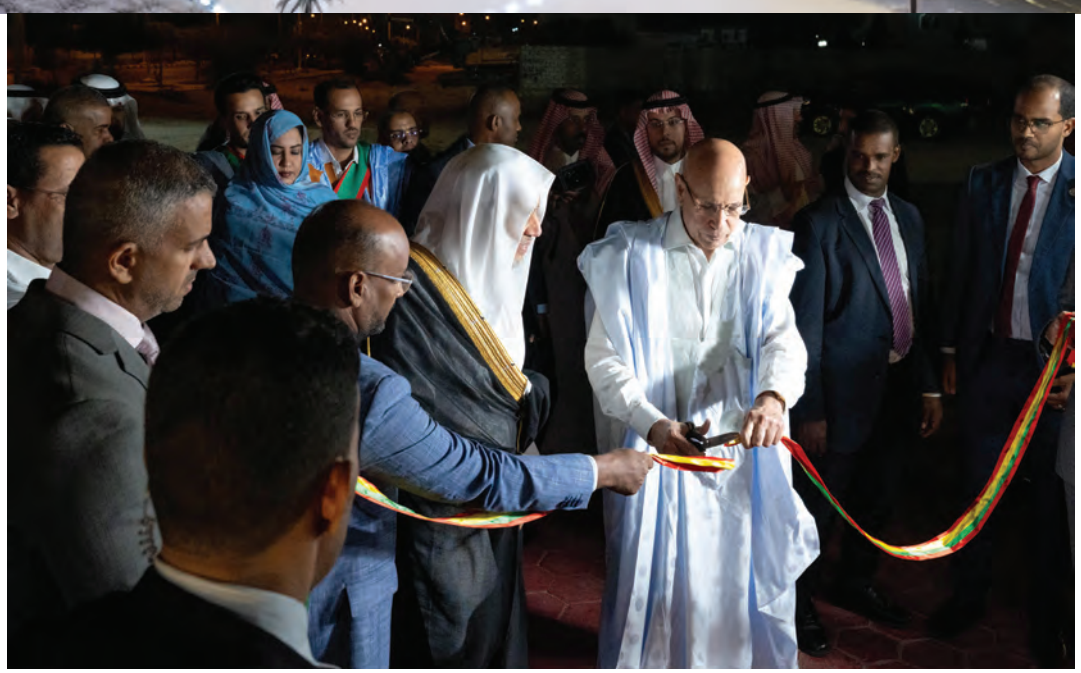

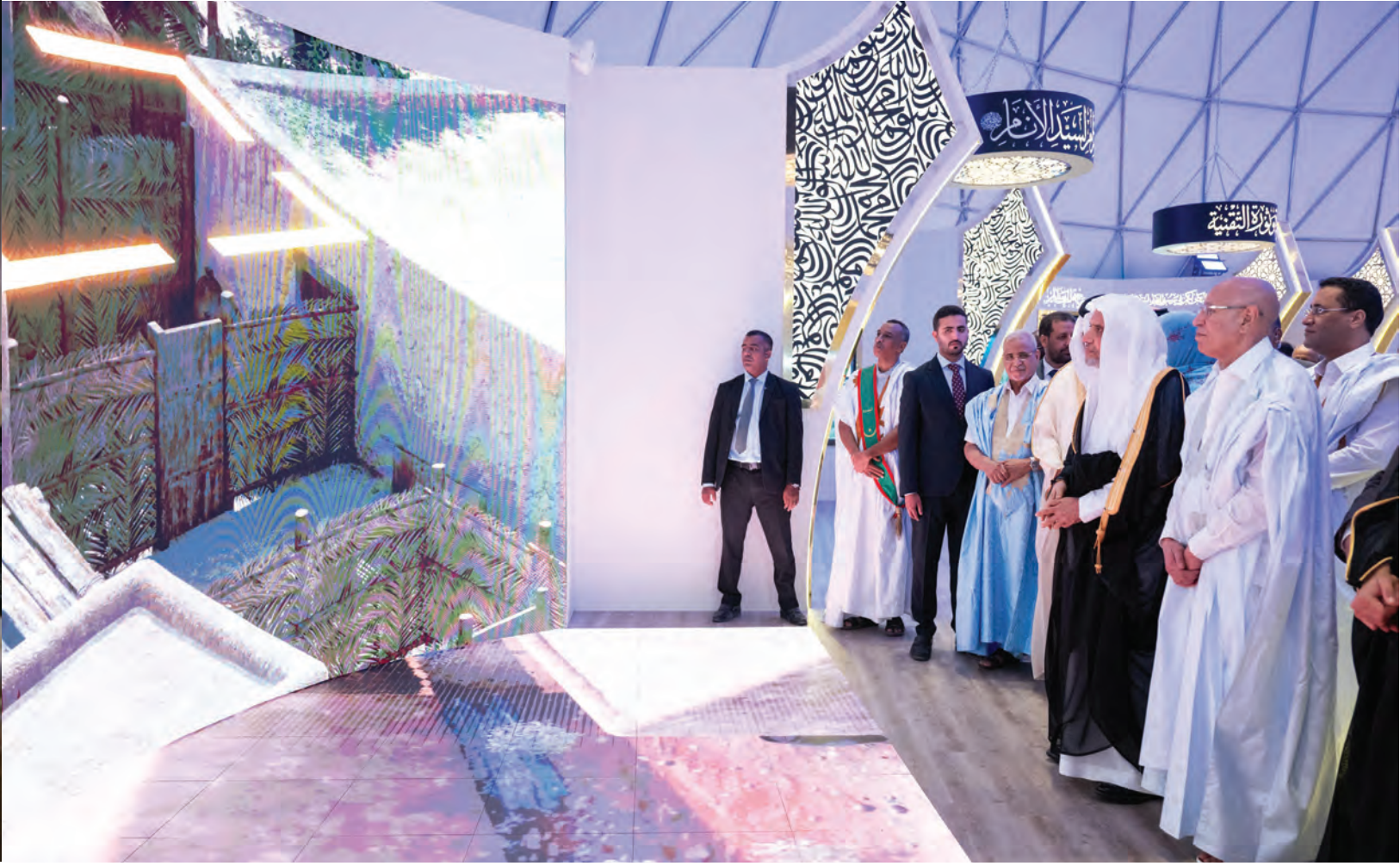

رابطة العالم الإسلامي
MUSLIM WORLD LEAGUE

مجسم غار
اتحاف
ETHAF

أمير المدينة المنورة يدشن المرافق الحديثة للمتحف الدولي للسيرة النبوية

الرابطة - المدينة المنورة

■ دشّـن صاحب السـمو الملكي الأمير سلمان بن سـلطان بن عبدالعزيز أمير منطقة المدينة المنـورة، رئيس مجلس هيئـة تطوير المنطقة، بحضـور معالـي الأميـن العـام لرابطـة العالـم الإسلامي، المشـرف العام على متاحف السيرة النبويـة والحضـارة الإسـلامية، فضيلة الشـيخ الدكتور محمد بن عبدالكريم العيسى، المرافقَ الحديثةَ للمقرّ الرئيس للمتحف الدولي للسيرة النبويـة، وذلك خلال زيارته مقـر المتحف جوار المسجد النبوي الشريف.

ويؤكّـد مشـروع سلسـلة متاحـف السـيرة النبويـة، الـذي ينطلـق مـن مقـرّه الرئيـس بالمدينة المنـورة، صدارة المملكـة الدائمة في خدمة القران الكريم والسنة الشريفة، وعلى

العناية والاهتمـام الكبيرين من خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز، وسمو ولـي عهـده الأميـن الأميـر محمد بن سـلمان، يحفظهما الله.

وتضـم المرافـق الحديثـة جنـاح «طيبـة أنـوار وآثار»، ومنصّة «إتحاف» الرقمية، والموسوعات العلميـة في السـيرة النبويـة والمسـجد النبوي الشـريف، كأنّـك تـراه الـذي يعـد عـملاً نبويًـا حضاريّاً، تُشـرِف عليـه رابطة العالـم الإسلامي، وأُقيم بدعم من إمارة منطقة المدينة المنورة، وهيئة تطوير المنطقة.

واطّلـع سـموه على جنـاح «طيبة أنـوار وآثار»، الـذي يقـدّم عرضًا موثّقًـا عن المدينـة النبوية الشـريفة عبر أكثر من ٢٠ قسمًا متنوعًا، يشمل أهـمّ الآثـار والمعالـم التاريخيـة والحضاريـة والاجتماعيـة للمدينـة النبويـة في عهـد النبـي ﷺ، ويضـمّ بانوراما للحُجرة النبوية الشـريفة، ومحاكاة لبناء المسجد النبوي الشريف، وخيمة الطـبّ النبـوي، والبرنامـج اليومـيّ للنبي ﷺ،

مشروع سلسلة متاحف السيرة النبوية يؤكد صدارة المملكة الدائمة في خدمة القران الكريم والسنة الشريفة

عبر تجربـة تفاعليّةٍ ثريّةٍ، كأنّـكَ تعيشُ أحداثَ السيرة النبوية الشريفة.

وفي إطار دعْم التحوّل الرقمي، دشّـن سـموه منصة «إتحـاف» الرقمية، وهي نافذةٌ تفاعليّةٌ حديثةٌ تُتيح للزائر استكشـاف السيرة النبوية عَبر جـولات افتراضيّـة، والاطلاع علـى مكتبة علميّةٍ تأصيليّةٍ، وموسوعاتٍ معرفيّةٍ في خدمة القرآن الكريم والسنّة الشريفة تزيد على ثلاث مئة وخمسـين مؤلفًـا، وإصـدارًا مترجَمًا إلى أهمّ اللغات العالمية، إضافةً إلى متابعة أخبار

المتاحف والمبادرات ذات الصلة، مما يُعزّزُ من نشر السيرة النبوية بوسائل عصريّةٍ مبتكرة.

وزار سـموّهُ جنـاحَ جهـود المملكـة في خدمة القرآن الكريم والسـنّة الشـريفة والحرمين الشريفين وضيوف الرحمن، مطلعًـا علـى مـا تقدّمـه المملكـة من أعمـالٍ عظيمـة، وجهـود مباركـة لإبراز رسـالة الإسلام التـي جـاءت رحمـةً للعالمين.

مسجد الجعرانة

على طريق الحج

مساجد تاريخية في مكة

إعداد: عبد الله حسين

■ تضم مكة المكرمة آثاراً مهمة من الفترة النبوية، كجبل النور وفي قمته غار حراء الذي كان يتعبّد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه نزل الوحي بأول آيات القرآن الكريم، وكذلك جبل ثور الذي مكث فيه النبي صلى الله عليه وسلم مع أبوبكر الصديق رضي الله عنه أثناء الهجرة للمدينة المنورة، إضافة إلى وجود العديد من المساجد التاريخية التي يشاهدها حجاج بيت الله الحرام في رحلتهم الخالدة لأداء مناسك الحج، وتتربع هذه المساجد في نفوس المسلمين، حيث تحيي ذكرى مرحلة مهمة من مراحل بداية الدعوة الإسلامية ونشرها إلى العالم أجمع، ولا تزال معظم هذه المساجد شامخة حتى يومنا هذا كشاهد عيان على القيمة الكبيرة لتاريخنا الإسلامي العريق.

(الرابطة) جالت في أحياء مكة المكرمة والمشاعر المقدسة ورصدت هذه المساجد لتقدم لقرائها لمحة تاريخية عن كل مسجد.

مسجد الجن

يقع المسجد بين الشارع المؤدي إلى مقبرة المعلاة وبين شارع المعلاة، وسمي بهذا الاسم نسبة إلى المكان الذي اجتمع فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلاً كما قال المؤرخون وأورده أصحاب التفاسير .

شهد المسجد على مر التاريخ عدة إصلاحات وتوسعات، كانت آخرها التوسعة المنفذة في عهد الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود عام ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، وكانت التوسعة ذات عمارة بديعة وفق أفضل التصاميم الإنشائية للمساجد الحديثة، وكسيت جدرانه الخارجية بالحجر الممثل.

مسجد الإجابة

يقع في حي المعابدة بشعبة الإجابة على يسار المتجه إلى منى، ولقد صلى في موضعه النبي محمد صلى الله عليه وسلم. بني مسجد الإجابة في القرن الثاني الهجري، وصلى النبي ﷺ في موضعه صلاة المغرب.

جرى هدم المسجد القديم وأقيم مكانه البناء الحالي، وقد شُيد على طراز عصري وزيدت مساحته وهو الآن يبلغ حوالي أربعمائة متر مربع، وجرى ترميمه عام ١٤١٩هـ.

مسجد البيعة

على بعد ٥٠٠ متر من جمرة العقبة الكبرى يلحظ الحجاج العابرون لمنطقة الجمرات مصلى أبيض لا سقف له يحوي محراباً ملحقاً به فناء أكبر من

مسـاحته، يطل على منى من الناحية الشمالية في السـفح الجنوبـي لجبل «ثبيـر» المطل على «شعب الأنصار» أو «شعب البيعة».

ورغـم أن موقـع البيعة الكبـرى (الثانية) يعود إلـى السـنة الثالثة عشـرة من البعثـة النبوية، عندمـا بايـع ٧٣ رجلًا وامرأتـان مـن الأوس والخـزرج النبـي صلـى الله عليـه وسـلم على الإسلام والنصرة، إلا أن تاريخ «مسـجد البيعة» الأثري يعود إلى سنة ١٤٤هـ عندما بناه الخليفة العباسـي أبو جعفر المنصـور في الموضع الذي تمت فيه البيعة تخليداً لهذه الذكرى.

مسجد الخَيف

الخَيف بفتح الخاء وسـكون الياء، ويقع في سفح جبل منى الجنوبي قريباً من الجمرة الصغرى، وقـد صلـى فيـه النبي صلـى الله عليه وسـلم والأنبياء مـن قبله، فعن يزيد بن الأسـود قال: شـهدت مع النبي صلى الله عليه وسـلم حجته فصليت معه صلاة الصبح في مسجد الخيف.

وتمـت توسـعة المسـجد وعمارتـه في سـنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، بتكلفة تسـعين مليون ريال، وبه أربع منائر وهـو مكيف بـ٤١٠ وحدة تكييف، كما يسـاعد على تلطيف الهواء في المسـجد ١١٠٠ مروحة، ويليه مجمع دورات المياه.

ولا يزال المسـجد يحتفظ بشـيء من مساحته ونقوشـه الإنشـائية، إذ يوجد به نقش إنشـائي يؤرخ لعمارته، وآخر تذكاري من الفترة نفسها، ونقـش إنشـائي مؤرخ في سـنة ٦٢٥هـ، ويأتي مسجد الخيف ضمن مشروع الأمير محمد بن سلمان لتطوير المسـاجد التاريخية في مرحلته الثانية.

مسجد المشعر الحرام

عندمـا يسـلك الحاج الطريق رقـم (٥) في رحلة العـودة من عرفات يجد في بداية مزدلفة أمامه «مسـجد المشـعر الحـرام»، حيث نـزل النبي صلى الله عليه وسلم عند قبلته في حجة الوداع، ويقع في منتصف المسافة تقريباً بين مسجدي

مسجد الجن

نمـرة في عرفات والخيف في منى، لكون مزدلفة واقعة بين عرفات ومنى.

وتمت عمارة وتوسـعة المسـجد عام ١٣٩٥هـ، علـى الشـكل الحالـي، بتكلفة خمسـة ملايين ريال، وبلغت مساحته ٥٠٤٠ متراً مربعاً، بطاقة اسـتيعابية ١٢ ألـف مصـل، وطولـه ٩٠ متـراً، وعرضـه ٥٦ متراً، وفي مؤخرته منارتان بارتفاع ٣٢م وله ثلاثة مداخل في كل من الجهة الشرقية والشمالية والجنوبية، ونوافذ وشرفات مسننة تلتف حول سطحه.

مسجد الإجابة

مسجد نمرة

مسـجد نَمـرة بفتـح النون، مـن أهـم المعالم في مشـعر عرفـات، وبـه يصلـي عشـرات الآلاف من ضيـوف الرحمـن صلاتـي الظهـر والعصـر في يوم عرفة جمعاً وقصراً اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم.

وبنـي المسـجد في الموضـع الـذي خطـب فيـه الرسـول عليه الـصلاة والـسلام في حجـة الوداع،

مسجد الخَيف

مسجد البيعة

في مسجد البيعة وضع لبنة الدولة.. وفي مسجد نمرة ودّع أمته

وشهد مسجد نمرة أكبر توسعة له في التاريخ في العهد السعودي بتكلفة ٢٣٧ مليون ريال، وصار طوله من الشرق إلى الغرب ٣٤٠ متراً، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٢٤٠ متراً، ومساحته أكثر من ١١٠ آلاف متر مربع، وتوجد خلف المسجد مساحة مظللة تقدّر بـ٨٠٠٠ متر مربع، ويستوعب المسجد نحو ٣٥٠ ألف مصل، وله ست مآذن؛ ارتفاع كل مئذنة منها ٦٠ متراً، وله ثلاث قباب، وعشرة مداخل رئيسية تحتوي على ٦٤ باباً، وفيه غرفة للإذاعة الخارجية مجهزة لنقل الخطبة وصلاتي الظهر والعصر ليوم عرفة مباشرة بواسطة الأقمار الصناعية.

مسجد نمرة

مسجد الحديبية

يقع المسجد بمنطقة الشميسي، ويبعد قرابة ٢٤ كيلومتراً من المسجد الحرام، وقرابة كيلومترين من حد الحرم، وقد بني المسجد الحديث بجوار المسجد الأثري القديم المبني بالحجر الأسود والجص، وسميت منطقة الحديبية بهذا الاسم نسبة إلى بئر الحديبية قرب الشجرة التي بويع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم تحتها، والتي تسمى تاريخياً ببيعة الرضوان.

مسجد الجعرانة

يقع في قرية الجعرانة، وهي قرية صغيرة قريبة من حي الشرائع باتجاه طريق الطائف، يعتمر

مسجد الحديبية

منهـا أهل مكة، وهي حدّ الحـرم المكي، وفي بلدة الجعرانـة قسّـم الرسـول صلـى الله عليه وسـلم الغنائـم التي اغتنموهـا من هوازن في غزوة حنين عـام الفتح، وقـد أقام بها الرسـول صلى الله عليه وسلم بضع عشـرة ليلة لم يقسم الغنائم منتظراً قـدوم هوازن تائبين، ولما وزعهـا جاء وفد هوازن تائباً وهو بالجعرانة، فسـألوه أن يرد إليهم سبيهم وأموالهم فقال لهم اختاروا إما السـبي وإما المال، فاختاروا السـبي فطلب من المسلمين رد السبي بطيب نفس، ففعلوا ثم أحرم منها ليلاً، ورجع بعد أداء العمرة في الليلة نفسـها وأمر جيشه بالرحيل إلى المدينة المنورة.

مسجد التنعيم

يقع في منطقة التنعيم، على بعد ٧ كيلومترات من الحرم المكي الشـريف تقريباً، والمسجد بُني عام ٢٤٠هـ الموافق لـ ٨٥٤م، في الموضع الذي أحرمت منه أم المؤمنين عائشـة -رضي الله عنها- في حجة الوداع في السنة التاسعة للهجرة، ويقع على حدود الحرم في الجزء الغربي من مكة المكرمة، ويسمّى أيضـاً بمسـجد أم المؤمنيـن عائشـة -رضـي الله عنها-، كما سـمّي كذلك بمسـجد العمـرة، لكثرة الإحـرام بالعمرة منه من أهل مكة، ومن نزل بها مـن قاصديها، ويتميز المسـجد بالأبواب والنوافذ المرتفعة، التي شُيدت على أحدث طراز معماري، رُوعي فيه الأصالـة والتاريخ، ليمازج بين المعمار الإسلامي الحديث والزخارف الأثرية القديمة. ويقع المسجد على مسـاحة ٨٤ ألف متر مربع، تشمل المرافق التابعة له، أما مساحة المسجد فهي ٦ آلاف متر مربع، ويستوعب نحو ١٥ ألف مصل.

مسجد التنعيم

مسجد المشعر الحرام

شعيرة الحج

دلالات توحيدية في المقاصد والنسك

بقلم: د. أحمد عبد القيوم عبد رب النبي

■ الحجّ ركنٌ من أركان الإسلام، وشعيرة كُبرى من شعائر الدين الحنيف، شرَعه الله تعالى لأجل مصالح عِباده الدينية ومنافعهم الدنيوية، يَجتمع فيه شرف الزمان والمكان، وشرَف العمل، وتتحققُ به جملةٌ من المقاصد العظيمة، والأهداف النبيلة، والفوائد الجليلة والمنافع العاجلة والآجلة، كما قال تعالى: «لِيَشْهدُوا منافعَ لهم».

ولعلّ أبرز منافع الحج ومقاصده العظام: تحقيق التوحيد لله تعالى والبراءة من الشِّرك ومظاهِره، وذلك في كلّ شعيرة من شعائره، فالحجّ توحيدٌ كلُّه، في مقاصده، وأذكاره، وأعماله، بكل أركانه وواجباته ومستحبّاته، وفي سائر شعائره، فما مِن خُطوة من خطوات الحج إلا وهي تَنطلق من معنى التوحيد لله تعالى، أو لوازمه، أو آثاره وثمَراته.

إن الحج عبادةٌ حنيفيةٌ سمحةٌ، بل هو كما قال الإمام ابن القيم: «خاصة الحنيفية ومعونة الصلاة، وسرّ قول العبد: لا إله إلا الله؛ فإنه مؤسّسٌ على التوحيد المحض، والمحبة الخالصة؛ وهو استزارة المحبوب لأحبابه، ودعوته إلى بيته ومحلِّ كرامته، ولهذا إذا دخلوا في هذه العبادة، فشعارهم: لبيك اللهمّ لبيك، إجابة مُحبّ لدعوة حبيبه، ولهذا كان للتلبية موقعٌ عند الله؛ وكلّما أكثر العبد منها كان أحبّ إلى ربه وأحظى».

والحجّ من أعظم الشعائر التي تُقوّي خشوع العبد وخضوعَه لخالقِه، وتُحْيي في قلبه توحيد المعبود -سبحانه- وذلك لأن أعمال الحج كلّها مبنية على التوحيد، فيزاولها الحاجّ وهو يمارس التوحيد، شِعاراً وعمَلاً وتطبيقاً ومنهجاً، فيبدأ الحاج نُسكه بالتوحيد، ولا يزال يُلبّي بالتوحيد، وينتقلُ من عمل إلى عمل بالتوحيد، مُقتدياً في ذلك بنبيه صلّى الله عليه وسلم الذي بيّن أحكامه تطبيقاً، قائلا: «خُذوا عنّي مناسككم»، فلا خيرَ في الدنيا بلا توحيد، ولا نصيبَ في الآخرة بلا توحيد.

وتتجلّى أهمية التوحيد في الحج بأن الله هيّأ الأسباب لبيان أحكامه قبل الشروع فيه، كما حدَث في السنَة التاسعة من الهجرة، عندما

أرسـلَ النبـيُّ صلـى الله عليـه وسـلم سـيدَنا أبا بكر -رضي الله عنه- لِيَحُجّ بالناس، وبعثَ معه علي -رضي الله عنـه- ليُبلّغ الناسَ بأربعة أمور، وذكر منها: «ولا يحُجّ بعد العام مُشرك»؛ ليكون هـذا النداء النبويّ الكريم تطهيرًا لهذا الموسـم العظيـم مـن أدران الشّـرك والكفـر والضـلال، وتهيئة له لاستقبال النبيّ صلى الله عليه وسلم وصَحْبه الكرام في العام الذي بعده؛ ليؤديَ حجّة الـوداع، مبيّنـا فيـه تشـريعاته وأحكامَـه، فكان مـن رحمـة الله بعبـاده: أن أعاد الحـجّ كما كان علـى قواعد إبراهيم عليه الصلاة السـلام، ونفى الشـركَ وأهلَه، فلمْ يَختلط بالمسـلمين في ذلك الموقف منهم أحدٌ.

قال الشّـعبي: نزلَـت هذه الآية «اليـوْمَ أكملتُ لَكم دِينَكُم وأتممتُ عليكُم نعْمَتِي وَرضِيتُ لكم الإِسَـلام دِينًا» على النبي صلى الله عليه وسـلم وهو واقـفٌ بعرفة، حين وقَـفَ موقفَ إبراهيم، واضمحلّ الشـركُ، وهُدمَتْ منارُ الجاهلية، ولَمْ يطُفْ بالبيت عُريان.

وإنمـا جـاء التأكيـدُ علـى الإخـلاص وتحقيـق التوحيـد في رحلة الحـج خاصة؛ لأنّ بذْل الأموال، ومفارقة الأهل والوطن، وحضور الجَمع العظيم، والتعـرض للأخطـار، مظِنّـة لتسـلّل العُجْـب والرياء إلى النفـس، فكان حريّاً بالحاج أن يحقق التوحيـد في حَجّته ويحافظ عليها من الشـركيّات والبدعيـات، ويصونهـا ممـا قـد يكون سـبَباً في حُبوط عمله وخُسران عبادته.

ورَدَ عـن بعـض التابعيـن أنه قـال: «ربّ مُحْرم يقـول: لبيـك اللهـمّ لبيك، فيقـال لـه: لا لبيك، ولا سَـعديك، هذا مردودٌ عليك، فلمّا سُـئل عن هذا؟ قال: لعلّه اشـترى ناقة بخمسمائة درهم، ورحْـلاً بمائتـي درهم، ومَفرشـاً بكـذا وكذا، ثم ركِب ناقته، ورجّلَ رأسه، ونظَر في عطْفيه! فذلك الـذي يُرَدّ عليه»، يعني: كأنه يباهي بعمله هذا، ويتزين به أمام الناس!

ولأهمية التوحيد وعِظم دلالته في هذه الشعيرة العظيمـة فقد جعَل الله تعالى -في كلّ عمل من أعمـال الحـج وأقوالِه من ابتدائه حتـى انتهائه- مَظهرًا بارزاً يدلّ دلالة أكيدة على تحقيق التوحيد للـه تعالى، وإخـلاص العبادة له، وأنـه المقصد الأسْـنى مـن أداء هذا الركـن العظيـم، فتلبيتُه توحيد، وطوافُه توحيد، وسـعيُه توحيد، ووقوفه

بعرفـة توحيـد، ومبيتـه بمنـى وعند المشـعر الحـرام توحيد، ورميه الجمـار توحيد، وحَلْقه أو تقصيره توحيد، ونَحْره توحيد، وإفاضتُه توحيد، ووداعه توحيد: «قلْ إِنّ صلاتِي وَنُسُكي وَمَحْيَاي وَمماتي لِله ربّ العالمِين، لا شَـرِيك له»، بل إنّ أسـاس البيت العتيـق إنما أُقيم علـى التوحيد، ولأجـلِ التوحيـدِ رُفعَت قواعدُه مـن أوّل وَهلة، فكان الطواف بـه، والحج إليه تذكيراً بهذا الأصل العظيم، قال الله تعالى: «وإذ بوّأنا لإبْراهيم مكان البيتِ أن لّا تُشرِكْ بِي شيئاً».

وفيما يلي إشـارة إلى بعض الدلالات التوحيدية في نُسك الحج:

* النطـق بالتلبيـة: «لبّيـك اللهـمّ لبيـك، لبيك لا شـريك لـك لبيـك، إنّ الحمْـدَ والنعمـة لـك والمُلك، لا شريك لك»، فهذه التلبية هي عُنوان التوحيـد والإيمان، والاسـتجابة لله تعالى، وهي دليـل الطاعة والإذعان، وفيهـا الاعتراف التامّ لله تعالى بالنِّعَم الظاهرة والباطنة والإقرار له بذلك، وقـد جمَعَت أنـواع التوحيـد الثلاثـة، وأظهرُها توحيـد العبـادة ونفْي الشـريك عـن الله، ولهذا سُـمّيت التلبية توحيداً، كمـا في قول جابر: «ثم أهلّ النبي صلى الله عليه وسلم بالتوحيد، لبيكَ اللهـمّ لبيك...»، وهي ردٌ على تلبية المشـركين حيـن كانـوا يَقولـون: «لَبّيْـكَ لَا شَـرِيكَ لَـك، إلا شَرِيكًا هو لك، تَمْلِكُهُ وما مَلَكَ».

فيَشـعُر الحاج -وهـو يلبّي- بترابُطه مع سـائر المخلوقـات، حيث تتجـاوبُ معه في عبودية الله وتوحيـده، كمـا قال صلى الله عليه وسـلم: «ما مِن مُلبٍّ يُلبّي إلا لبّى ما عن يمينه وعن شماله من شـجَر وحجَر، حتـى تَنقطـع الأرضُ من هنا وهنا»، ولهذا سـأل النبيّ صلى الله عليه وسـلم ربّـه الإخـلاص في هذه العبـادة خصوصـا، حين قال: «اللهـمّ حَجّة مبرورة متقبّلـة، لا رياءَ فيها ولا سمعة»، وقال أيضا: «لبيك بحَجّة حقّا، تعبّدا ورقّا».

* أداء طـواف القـدوم بعـد وصـول الحـاج إلى البيت الحرام، وهي عبادة شُـرِعَت لتعظيم الله، بدليل أن الله تعالى حينما أمَر بالطواف في قوله: «وَلْيطّوّفوا بِالبيت العتيقِ»، نوّه بشـأن التوحيد، واصفًا حال الطائف أثناء طوافه فقال: «حُنَفاء لِلّهِ غَيْر مُشْرِكِينَ بِهِ».

* عندمـا يسـتَلم الحـاجّ الحجَر الأسـود ويقبّله فإنـه يَفعل ذلـك عبادةً لله تعالـى وحْده، لا لأنه يعبُد الحجر الأسـود أو يعتقـد فيه النفع والضّر، كمـا ثبَـت عن عُمَـرَ حين قَبّـل الْحَجَرِ الْأَسْـوَدِ، قال: «إني لَأَعْلَمُ أَنّك حَجَرٌ لَا تَضُرّ ولا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّـي رأيـتُ النبيّ صلـى الله عليه وسـلم يُقَبّلُكَ مـا قَبّلْتُك»، ولو أنّ رجلاً قبّـل حجَراً غير الحجَر الأسود تعبّدا، لكان ذلك شِركاً.

* بعـد الطـواف وعندمـا ينصـرف الحـاج إلـى (الصفـا) لأداء السـعي، فإنـه يسـتفتح سـعْيه بصعـود الجَبـل، واللهَـج بكلمـة التوحيـد، كما في حديـث جابر: «فاسـتقبلَ القِبلـة، فوحّد الله، وكبّره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شـريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شـيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجزَ وعْده، ونصَر عبْده، وهزَم الأحزاب وحده».

* الدعاء: وهو من أعظم مظاهر التوحيد في الحج، حيـن يُقبِل الحاجّ على ربّه، بكُلّيته؛ خائفاً، راجياً، طامعـاً، راغبـاً، راهباً، مُنيبـاً، متضرّعـاً، مُبتهلاً، سـواء عنـد الوقـوف بمنـى وعرفـة ومزدلفـة، وبعـد رمـي الجمـرات، وفي الطـواف، وفي الصفا والمروة وغيرها من الأماكن المباركة والأوقات الفاضلة، لا سـيما في يوم عرفـة حيث يُظهر فيه الحاجّ خضوعَه وذلّه وانكساره وإخباته لله تعالى الواحد الأحد، بالثناء والمحامد والدعاء والأذكار، وهـذا المعنـى هـو حقيقـة التوحيـد الخالـص ومقتضاه، والرسـول صلى الله عليه وسـلم أقرّ بالتوحيـد للـه تعالـى في دعائـه عشـية عرفة في الموقـف، حيـث كان أكثر دعائـه: «... اللهمّ لك صلاتي ونُسـكي، ومحياي ومماتي، وإليك مآبي، ولـك ربّ تُراثـي..»، وقد أخبرَنـا صلّى الله عليه وسلم بأنّ خيرَ الدعاء والذِّكر في هذا اليوم الأغَرّ، هـو دعاء التوحيد، حيث قـال: «خيرُ الدعاء دعاء يوم عَرفة، وخيرُ ما قلتُ أنا والنبيّون من قَبلي: لا إلـه إلا الله وحـده لا شـريك له، لـه الملك وله الحمد وهو على كل شيءٍ قدير».

* ذِكْر الله تعالى، وهو مشـروعٌ للحاج في جميع الأوقات ومختلف الأحوال، وعلى جميع الأصعدة، وهـو من صميـم توحيـد الله تعالـى وتعظيمِه،

فليس الذِّكر إلا تكبيراً وتهليلاً وتحميداً وتسبيحاً، وتلاوةً للقرآن واستغفاراً، سواء كان ذِكْراً مطلقًا في منى وعرفات ومزدلفة وأيام التشريق، أمْ مقيداً ببعض العبادات، كالرمي والحَلْق والطواف والسعي وأدبار الصلوات المكتوبات، وقد جاء في الحديث: «إنما جُعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمْي الجمار؛ لإقامة ذِكر الله».

* نَحْر الهَدْي، وهو من مناسك الحج التي شُرعت لتحقيق التوحيد الخالص لله تعالى، امتثالًا لقوله جل وعلا: «فصلّ لربك وانحَرْ»، بل قال الإمام ابن كثير: «لمْ يزَلْ ذبْح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعًا في جميع المِلل»، وقال الشيخ ابن سعدي: «ليس المقصود منها ذبْحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شيءٌ، لكونه الغنيّ الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها، والاحتساب، والنية الصالحة، ولهذا قال: «ولكن يناله التقوى منكم».

فحريٌّ بمن أشهَدَه الله هذه المواطن الشريفة، وأكرَمَه بحضور هذه البقاع المقدّسة، أنْ يفقَه هذه المعاني العظيمة، وأن ينفُضَ الغبار عن نفسه، ويجلوَ صدأ قلبه، ويُذْكِيَ جِذوة التوحيد في روحه، فيصفو عقله، وتسمُو روحُه، وتزكو نفسه، ويستقيم سلوكه، وتتحقق عبوديته، فلا يعودُ من رحلة حجّه إلا وقد صحّت عقيدتُه، وطهُر مسلكُه، وقويَت عزيمتُه على الخير؛ ليولَد من جديد، وينشأ نشأةً أخرى، يستقبل فيها حياته بروح مختلفة وإيمان ثابتٍ وراسخ.

إنّ من أعظم ثمرات التوحيد هو تحقيق الإخلاص وإظهار الافتقار لله وحده، وقد نبّه الله تعالى عِباده على ضرورة تحقيقه في الحج خاصة، فقال تعالى: «وأتِمّوا الحجّ والعُمْرة للّه».

قال الإمام الشافعي: «وإنما قال في الحج والعمرة: (لله)، ولمْ يقُل ذلك في الصلاة والزكاة؛ من أجل أنهم كانوا يتقرّبون ببعض أفعال الحج والعمرة إلى الأصنام، فخصّهما بالذّكر لله تعالى حثًّا على الإخلاص فيهما، ومجانبة ذلك الاعتقاد المحظور».

وعلّل القرافي لهذا التخصيص، فقال: «لأن الحج والعمرة مما يَكثر الرياء فيهما جدًّا، ويدل على ذلك الاستقراء، حتى إن كثيرا من الحُجاج لا يكاد يسمع حديثا في شيء من ذلك، إلا ذَكر ما اتفقَ له أو لغيره في حَجّه، فلمّا كانا مظِنة الرياء، قيل فيهما: لله؛ اعتناءً بالإخلاص»

وهكذا في قصة الخليل إبراهيم عليه السلام حين أمَره الله ببناء البيت العتيق، حيث لمْ يأمرْه بذلك إلّا لتحقيق توحيدِه سبحانه، كما يَظهر ذلك جليًّا من اقتران الأمْر ببناء البيت بالنهي عن الشرك والتخلّص من مظاهره، فقال تعالى: «وإذْ بَوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تُشْرِك بي شيئا وطَهّرْ بيْتيَ للطّائفين والقائمين والرُّكّعِ السّجود».

وقد أكّد الأئمة الفقهاء على الحاجّ بضرورة تحقيق الإخلاص في هذه العبادة خاصة، والحذر من الرياء فيها، فقال الإمام الغزالي: «لِيجعلْ (الحاجّ) عزْمَه خالصًا لوجه الله سبحانه، بعيدًا عن شوائب الرياء والسمعة، وليتحقّقْ أنه لا يُقبَل من قصْده وعمَله إلا الخالص، وإنّ مِن أفحش الفواحش أنْ يقصد بيتَ الله وحَرمه والمقصود غيره، فلْيصحّح مع نفسه العزم، وتصحيحه بإخلاصه، وإخلاصه باجتناب كلّ ما فيه رياء وسمعة، فلْيحذَر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير».

بل إنّ أهل العلم نصّوا على أن الحجّ المبرور هو ما تَحقّق فيه التوحيد واكتنفَه الإخلاص، كما فسّر بذلك الإمام النووي، حين قال: «المبرور هو الحج الذي لا يخالطه إثم ولا رياء».

وقال الشيخ ابن عثيمين: «الحجّ المبرور يكون خالصاً لله عز وجل؛ بأن لا يَحمل الإنسان على الحج طلب مالٍ أو جاهٍ أو لقَبٍ أو ما أشبه ذلك، بل تكون نيتُه التقرّب إلى الله عز وجل، والوصول إلى دار كرامته». (فتح ذي الجلال والإكرام).

وفي الجملة، فإنّ مظاهرَ التوحيد والإخلاص لله تعالى تتجلّى في أعمال الحج كلِّها، دون استثناء أو تمييزٍ، وجميع مناسك الحج شاهدةٌ على توحيد الله تعالى، يُظهر فيها العبد ذُلّه وتعظيمه وخوفه ورجاءه واستعانته بالله تعالى وحده دون سواه، ولذلك كان جزاؤه الجنة؛ كما في الحديث: «الحجّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلا الجنّة».

تنظيم الحج:
تجسيد حي للإدارة والتخطيط

بقلم: بسمة نعيم ـ مصر

■ تُشكّل فريضة الحج، الركن الخامس في الإسلام، حدثاً استثنائياً فهي ظاهرة إنسانية وحضارية فريدة، تتجسد فيها معاني الوحدة والإيمان والتسامي الروحي لملايين المسلمين القادمين من كل فج عميق. وفي قلب هذه التجربة الروحانية العظيمة، تقف المملكة العربية السعودية، حاملةً على عاتقها أمانة تاريخية ومسؤولية جسيمة تتمثل في رعاية هذا التجمع الإيماني الأكبر في العالم، وضمان تأدية ضيوف الرحمن لمناسكهم في أجواء من الطمأنينة واليسر والأمان. إن إدارة الحج ليست مجرد مهمة لوجستية، بل هي منظومة متكاملة تعكس التزاماً دينياً ووطنياً عميقاً، وتجربة متراكمة تمتد لعقود، تشهد تطوراً مستمراً يمزج بين الأصالة والمعاصرة.

إدارة الحشود من التحدي إلى الإنجاز

لم يكن تنظيم الحج عبر التاريخ بالمهمة الهينة، فمع تزايد أعداد الحجيج بشكل مطرد على مر العقود، وتنوع مشاربهم الثقافية واللغوية، تحولت إدارة هذه الحشود المليونية المتدفقة نحو بقعة جغرافية محدودة وفي أزمنة محددة بدقة، إلى تحدٍ لوجستي وأمني وإداري معقد. استوعبت المملكة العربية السعودية هذا التحدي مبكراً، وأدركت أن الوفاء بمسؤوليتها يتطلب رؤية استراتيجية وتخطيطاً دقيقاً واستثماراً هائلاً.

تُعد البنية التحتية التي شيّدتها المملكة في مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة شاهداً مادياً على حجم هذا الجهد، فلم تقتصر المشاريع على التوسعات المتعاقبة والتاريخية للمسجد الحرام والمسجد النبوي لاستيعاب الأعداد المتزايدة، بل امتدت لتشمل شبكات طرق وجسور وأنفاق متطورة، وقطارات سريعة مثل قطار المشاعر المقدسة وقطار الحرمين، التي تربط بين المواقع الرئيسية، ومطارات حديثة قادرة على استقبال ملايين المسافرين. هذه «الحاضنة المكانية» لم تُصمم فقط لتسهيل الحركة، بل لضمان انسيابيتها وتقليل الاختناقات، مما يُسهم مباشرة في تعزيز تجربة الحاج الروحية بتخفيف الأعباء الجسدية عليه.

على صعيد مواز، تبرز منظومة الخدمات الصحية والأمنية ركيزة أساسية في نجاح إدارة الحج، فلا يقتصر الأمر على بناء المستشفيات والمراكز الصحية الثابتة والميدانية المجهزة بأحدث التقنيات، بل يمتد ليشمل آلاف الكوادر الطبية والإسعافية المنتشرة في كل موقع، التي تعمل على مدار الساعة لتقديم الرعاية اللازمة، مع التركيز على الطب الوقائي ومتابعة الحالات الصحية للحجاج منذ وصولهم.

أمنياً، تتجاوز الخطط مجرد حفظ النظام لتشمل إدارة الحشود بأساليب علمية متقدمة، واستخدام التقنيات الحديثة مثل كاميرات المراقبة الذكية وأنظمة الاتصالات المتطورة، وتدريب أعداد ضخمة من رجال الأمن والمتطوعين على التعامل مع مختلف المواقف بمهنية وإنسانية، مع التركيز على مساعدة التائهين وكبار السن وتقديم العون اللازم، وهو ما يعكس فهماً عميقاً لخصوصية المناسبة وقدسيتها.

التكنولوجيا في خدمة الروحانية

وظفت المملكة الثورة الرقمية بذكاء فريد لتعزيز أداء الحج. إذ تستخدم التطبيقات الذكية التي توفر للحاج معلومات إرشادية وتوعوية وخرائط تفاعلية وخدمات طوارئ، إلى جانب «البطاقة الذكية للحاج» التي تسهل التعرف على هويته والوصول إلى بياناته الصحية وخدماته، وصولاً إلى أنظمة إدارة الحشود المعتمدة على الذكاء الاصطناعي لتحليل تدفقات الحركة وتوجيهها. هذا «الذراع التقني» لا يهدف فقط لرفع الكفاءة التشغيلية، بل يسعى بشكل أساسي إلى «تفريغ الحاج لعبادته»، بتقليل أوقات الانتظار وتوفير المعلومات اللازمة بسهولة، مما يسمح له بالتركيز على جوهر الرحلة: التأمل والذكر والدعاء.

الأثر العميق للحج في النفس المسلمة

إن الجهود التنظيمية الهائلة التي تبذلها المملكة تجد صداها الأعمق في التجربة الروحية الفردية والجماعية للحاج، في رحلة «إلى البيت العتيق»؛ تتجرد فيها النفس من علائق الدنيا وزخرفها، وتتجه بكليتها إلى الخالق. تبدأ هذه الرحلة قبل الوصول الفعلي، منذ لحظة عقد النية والإحرام، حيث يدخل المسلم في حالة من التجرد والخشوع، مستشعراً المساواة التامة مع إخوانه المسلمين القادمين من شتى بقاع الأرض، لا فرق بينهم إلا بالتقوى.

اللحظة التي تقع فيها عين الحاج على الكعبة المشرفة للمرة الأولى غالباً ما تكون لحظة تحول فارقة، تنفجر فيها ينابيع المشاعر، وتنساب الدموع، وتلهج الألسنة بالدعاء والتوبة. الطواف حول البيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة – ركن الحج الأعظم – كلها محطات تفيض بالروحانية، وتتيح للحاج فرصة فريدة للتأمل في مسيرة حياته، ومراجعة علاقته بربه وبالناس، وتجديد العهد على الطاعة والاستقامة، وفي عرفات؛ حيث يتجلى مشهد الحشر المصغر، يدرك الإنسان ضعفه وحاجته إلى رحمة الله، وتتلاشى الفوارق المادية والاجتماعية، ويسود شعور عارم بالانتماء إلى الأمة الإسلامية الواحدة.

هذه التجربة ليست مجرد مشاعر عابرة، بل هي عملية تربوية وإيمانية عميقة تهدف إلى صقل النفس وتطهيرها. يسعى الحاج جاهداً خلال هذه الأيام المباركة للتخلص من أمراض القلوب كالكبر والحسد والبغضاء، والتحلي بالصبر والتسامح والإيثار. إن مشاهدة هذا الطوفان البشري الهائل، الموحد في ملبسه وهدفه وتضرعه، يغرس في النفس قيماً إنسانية عليا، ويعزز الشعور بالسلام الداخلي.

العودة بروح جديدة

عندما يختتم الحاج مناسكه ويعود إلى وطنه، فإنه لا يعود كما ذهب؛ بل يعود محملاً بذكريات لا تُمحى، وتجارب روحية غنية، ودروس قيمة. يعود غالباً بقلب أصفى، ونفس أزكى، وعزيمة أقوى على الالتزام بتعاليم دينه في حياته اليومية. يصبح «الحاج» رمزاً للتوبة المقبولة والبداية الجديدة، ويسعى لنقل هذا الأثر الإيجابي إلى محيطه ومجتمعه. إن رحلة الحج، بتنظيمها المحكم وروحانيتها العميقة، تترك بصمة لا تزول في وجدان المسلم، وتظل نبراساً يضيء دربه.

ختاماً، إن تنظيم المملكة العربية السعودية لفريضة الحج هو تجسيد حي لقدرتها على إدارة حدث عالمي بهذا الحجم والتعقيد، وهو نتاج عقود من التخطيط والعمل الدؤوب والتطوير المستمر الذي لا يتوقف عند حد. إنه نموذج فريد يمزج بين الالتزام الديني العميق، والمسؤولية الوطنية، والتوظيف الأمثل للإمكانات البشرية والمادية والتقنية. إن النجاح المتكرر في تنظيم مواسم الحج، رغم التحديات المتزايدة، لا يعكس فقط كفاءة إدارية، بل يبرز أيضاً تفاني المملكة في خدمة ضيوف الرحمن، وتوفير بيئة آمنة وميسرة تمكنهم من أداء ركن الإسلام الخامس، والعودة إلى ديارهم بذكريات روحانية خالدة، وهو ما يعزز مكانتها ودورها الريادي في العالم الإسلامي كحاضنة للحرمين الشريفين وراعية للمشاعر المقدسة. إنها قصة نجاح متجددة، وملحمة تنظيمية وروحانية تُروى كل عام على أرض المملكة العربية السعودية.

غولبدان بيغم

أميرة «مغولية» حَملتها أشواقها «بحرا» نحو الديار المقدسة

صبغة الله الهدوي ـ الهند

■ في يـوم خريفـي من عـام ١٥٧٦، شـهد البلاط المغولي حدثًا استثنائيًا لم يألفه من قبل، حين انطلقـت قافلـة ملكية تحمـل في طياتها ملحمة مـن الشـغف والإرادة، تقودهـا امـرأة مغوليـة خرقت أسـوار الأعـراف وتجاوزت حـدود الحرم الإمبراطوري في سـابقة لم تشـهدها سلالتها. لم تكن رحلتها مجرد انتقال من مكان إلى آخر، بل كانت اختبارًا حقيقيًـا للصبر والعزيمة، امتدت لست سـنوات، حملت معها محنًا وتحديات لم تهـدأ، فكانـت أول امـرأة تغادر أسـوار فتح بور سـكري، متجهةً إلى الأراضي المقدسة، في رحلة لم تجرؤ بنات الملوك من قبلها على خوضها.

ورغم أنها ابنة السـلطان المغولي العظيم ظهير الديـن بابر مؤسـس الدولة المغوليـة في الهند، فإن نسـبها لـم يكن درعًا يحميهـا من العراقيل التـي أحاطـت بهـا في كل خطـوة. كان السـفر في تلـك العصـور مغامـرة محفوفـة بالمخاطر، لا توثّـق تفاصيله كما يليق بمهابته، لكن رحلتها خُلِّدت بحروف ذهبية في سجلات الزمن، لتروي قصـة امـرأة جعلت من أشـواقها شـراعًا يبحر بها إلـى حيث يلتقي الإيمـان بالعزيمة. لم يكن طريقها مفروشًا بالحرير، بل كان مليئًا بالأهوال والوقائـع الصادمة، فبين المد والجزر، والنهضة والسـقوط، لـم تكن شـاهدة فقط علـى تقلبات السلطنة المغولية، بل كانت روحها ذاتها تمضي في رحلـة تحول عميقة، جعلت منها رمزًا للإرادة

التي تتحدى الزمن والتقاليد.

من هي غولبدان بيغم؟

ملكـة، كاتبـة، شـاعرة في التركيـة والفارسـية، ومؤرخـة، اجتمعت في شـخصيتها صفات القوة والـذكاء والرقـي، فكانـت ابنـة للسـلطان بابر، وأختًا للإمبراطـور هومايون، وعمةً لجلال الدين أكبر، شـاهدةً علـى محطات مفصليـة في تاريخ السـلطنة المغولية، من التأسـيس إلى النفوذ، ومن الصعود إلى السقوط ثم العودة إلى المجد من جديد.

عاشـت معظم حياتهـا في كابل، حيث تنفسـت عبـق إرث أجدادهـا، إلى أن اسـتدعاها أكبر عام ١٥٥٧ إلى قصره في آغرا، عاصمة المغول آنذاك، حيث حظيت بمكانة رفيعة، وكانت موضع حب ورعايـة، ليس فقط من ابـن أخيها، بل أيضًا من والدتـه حامدة بانو بيغم. لم تكـن مجرد أميرة تعيـش في ظلال القصـور، بـل كانت عـقلًا واعيًا وقلمًا مؤرخًا سـجل صفحات من تاريخ الأسـرة المغوليـة في كتابهـا الشـهير «همايـون نامه»، الـذي قـدم صورة نـادرة عـن الـبلاط المغولي وأحداثـه، بعيـدًا عن المبالغات التـي زخرت بها كتب المؤرخين الرسميين.

رحلتها للحج

في أكتوبـر مـن عام ١٥٧٦، بـدأت غولبدان بيغم، برفقـة مجموعـة من النسـاء الملكيـات، رحلة شـاقة إلى مكة المكرمة، بـل مغامرة محفوفة بالمخاطـر. كانـت قد أخبـرت الإمبراطـور أكبر

بأنها نذرت هذه الرحلة، فاستجاب لها بحفاوة، مسخرًا لها ولمرافقيها كل ما يلزم لضمان وصولهم بسلام. جهّز أكبر لهذه البعثة سفينتين مغوليتين ضخمتين، أطلق عليهما اسم «سليمي» و«إلهي»، ليكونا أولى السفن التي بناها المغول لهذا الغرض. ولم تكن الرحلة مجرد انتقال جسدي، بل حملت معها طابع السخاء الملكي، حيث اصطحبت القافلة صناديق مبطنة بالذهب مملوءة بالعملات الفضية والذهبية لتوزيعها على الفقراء والمحتاجين، إلى جانب آلاف الروبيات واثني عشر ألف «ثوب شرف»، في مشهد يعكس سخاء البلاط المغولي وكرمه.

عندما حان وقت الرحيل، اصطف الناس في شوارع فاتحبور سيكري، عاصمة المغول ذات الحجر الرملي الأحمر، رجالاً ونساءً، كبارًا وصغارًا، يراقبون الموكب الملكي المغادر بنظرات مشوبة بالرهبة والانبهار، كما وصفت لال في كتابها. غير أن الرحلة لم تكن يسيرة، إذ كان البحر تحت سيطرة البرتغاليين، الذين اشتهروا بنهب السفن وحرقها، بينما كان الطريق البري عبر بلاد فارس يعج بالمخاطر، حيث العصابات المسلحة التي لم تتردد في مهاجمة القوافل.

ما إن وصلت القافلة إلى ميناء سورات حتى وجدت نفسها عالقة هناك، بلا وسيلة لمتابعة الرحلة، إذ استمر احتجازهم قرابة عام قبل أن يتمكنوا أخيرًا من التفاوض على ممر آمن مع البرتغاليين. حين أبحروا أخيرًا، قضوا أربعة أسابيع متواصلة وسط أمواج بحر العرب حتى بلغوا ميناء جدة، حيث ترجلوا ليواصلوا طريقهم برًا. استقلوا الجمال، وامتدت رحلتهم عبر الرمال الملتهبة، تحت شمس الصحراء القاسية، حتى وصلوا أخيرًا إلى مكة، ليكملوا رحلتهم الروحية التي جمعت بين الإيمان والمغامرة والصبر في آن واحد.

لكن المرحلة الأكثر إثارة في رحلة غولبدان بيغم لم تكن وصولها إلى مكة، بل قرارها البقاء في شبه الجزيرة العربية لأربع سنوات أخرى بعد

أداء مناسـك الحـج. لم يكن ذلك مجـرد امتداد للرحلـة، بـل كان تحـولًا جذريًّـا في حياتها وحياة مـن رافقهـا. فقد اختارت هـي ورفيقاتهـا، وفقًا لما ذكرته لال، أن يعشـن حياة الزهد والتجوال، متشـردات في الأراضـي الصحراويـة، بلا قصـور تحميهـن ولا حـراس يحيطـون بهن، بـل بروح حرة لم تعرفها أي من نساء البلاط المغولي من قبل.

في تلك السـنوات، لـم يكن وجودهـن في الحجاز مجـرد إقامة عابرة، بل أصبح حدثًا بارزًا تناقلته الألسـن. وزّعـت غولبـدان ورفيقاتهـا الصدقات بكـرم لا مثيـل لـه، وأغدقـن العمـلات الذهبية والفضّية على المحتاجين، ولم تبخل بأي شـيء قد يخفف عنهم وطأة الحياة. هذا السخاء اللافت لم يكن مجرد عمل خيري، بل تحوّل إلى رسالة سياسـية غيـر مقصـودة، لدرجـة أن السـلطان العثمانـي مـراد الثالـث استشـعر في تصرفاتها نفوذًا يهدد سـلطته، إذ رأى في ذلـك تأكيدًا على قـوة الإمبراطور أكبر وتأثيـره حتى خارج حدود الهند.

لم يكن السلطان العثماني ليتجاهل هذا التحدي الصامـت، فأصدر سلسـلة من أربعة مراسـيم يأمـر فيها بطرد غولبدان وسـيدات المغول من شـبه الجزيـرة العربيـة. غيـر أن هـذه الأوامر، التـي حملـت نبـرة القـوة والصرامـة، قوبلت بإصرار لا يقل عنها صلابة. في كل مرة جاء الأمر بالمغـادرة، رفضـت غولبدان الامتثـال. لم تكن تلك مجرد معارضـة عناد، بل كانت تحديًا ينبع مـن قناعة راسـخة بحقها في البقـاء، في أن تكون حيـث تريد، في أن تعيـش الحياة كما تراها هي، لا كما يفرض عليها.

أخيرًا، وقد أصابـه الذهول من صلابتها ورفضها المتكرر للمغادرة، لجأ السـلطان العثماني مراد الثالـث إلـى اسـتخدام مصطلـح تأنيبي شـديد القسـوة في التركيـة العثمانيـة –«نا-مشـرو»، الـذي يعني: «عمل غير لائق أو خاطئ». لم يكن هـذا مجرد توبيـخ عادي، بـل كان إدانـة علنية اسـتهدفت غولبـدان ورفيقاتهـا، محـاولًا وصم وجودهن في الحجاز بأنه تصرف غير مقبول. لكن مـا زاد من حدة الموقف هـو أن هذا المصطلح المهيـن بلـغ مسـامع الإمبراطـور أكبـر، الذي استشـاط غضبًا، معتبرًا إهانة غولبدان مساسًـا بكرامة البيت المغولي نفسه.

وبعد صـدور هذا المرسـوم الخامـس، لم يعد هناك خيار أمام غولبدان سوى مغادرة الأراضي الحجازية. وهكذا، بعد أربع سنوات من الترحال والتحـدي، غـادرت مـع رفيقاتهـا في عـام ١٥٨٠، لتعـود قافلتهـن إلى الهند بعد رحلة شـاقة عبر الأراضـي القاحلـة والبحـار المتقلبـة. لـم تصل القافلة إلـى العاصمة فورًا، بل توقفت في خانوا، علـى بعـد ٦٠ كيلومتـرًا غرب فتحبور سـيكري، حيث اسـتراحت بعد تلك السنوات الطويلة من الغياب.

لكـن غولبدان لم تعد مجـرد أميرة مغولية، بل عـادت تحمل لقب «نواب»، وهو وسـام شـرف لـم يُمنح لها فقـط تقديرًا لمكانتها، بـل اعترافًا بشجاعتها وإرادتها القوية. رحّب بها أكبر بحفاوة بالغـة، ولـم يقتصـر تكريمـه لهـا علـى الألقاب الفخريـة، بل دعاها لتكون المسـاهمة الوحيدة في «أكبـر نامـا»، السـجل الرسـمي الـذي يوثق عظمـة حكمه، والذي لم يسـمح لأي امرأة قبله بالمشـاركة في كتابتـه. وهكـذا، لم تكـن رحلتها مجـرد نزهـة روحية، بـل كانت تجربـة أعادت تشـكيل صورتهـا في الـبلاط المغولـي، وجعلتها رمـزًا للمـرأة القويـة، الحـرة، التـي لـم تخشَ مواجهة الملوك والسلاطين، وسجلت اسمها في صفحات التاريخ بجرأتها وإصرارها.

المصادر والمراجع

• Faruqui, Munis D. (2012). Princes of the Mughal Empire, 1504-1719. Cambridge: Cambridge University Press. p. 251. ISBN 9781107022171

• Schimmel, Annemarie (2004). The Empire of the Great Mughals: History, Art and Culture. Reaktion Books. p. 144.

• Begam, Gulbaden (1902). Beveridge, Annette Susannah (ed.). The history of Humāyūn (Humāyūn-nāma). London: Royal Asiatic Society. Retrieved 14 December 2017.

جاءت وحدة الأمة وترابطها من أهم محاوره

مقاصد الحج الاجتماعية

د. مصطفى أحمد قنبر ـ قطر

▪ ليس أدلّ على المقاصد الكبرى والغايات العظمى لشعيرة الحج، التي يمكن للمتأمل إدراكها والوقوف على كنهها، من قول ربنا الشارع الحكيم في سورة الحج: (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) فقد عَبرت الآيات الكريمة عن جملة المقاصد الكبرى والغايات العظمى التي يجنيها الناس من تلبية ما فرضه المولى جلّ وتكرّم من حج بيته بـ(منافع)، وقد جاءت اللفظة الشريفة جمعًا ونكرة، لإفادة تعددها وتنوعها، فضلا عن عظم قدرها وعموم فوائدها التي ينعم بها الأفراد والمجتمعات.

وتتنوع هذه المنافع التي يجنيها الحاج، فمنها ما يعود بالخير عليه في دنياه وأخراه، ولعل من أجلّها أنه يعود من رحلته المباركة وقد غُفرت ذنوبه كلها، كأنه ولد من جديد؛ روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أنه قال: «سَمِعْتُ النبيّ صَلّى الله عليه وسلّمَ يقولُ: مَن حَجّ لِلّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَومِ ولَدَتْهُ أُمُّهُ» . وفي الدنيا نرى أثر هذه المنافع على الأفراد والمجتمعات، لتنعم الأمة كلها بهذا الخير في نواحي عدة. وفي هذا المقال، نقف على المقاصد الاجتماعية، ونحلل أبرز تجلياتها على مستوى المجتمع والأمة.

تجلَت أولى صور الوحدة في صلاة الجماعة، ثم اتسعت في صلاة الجمعة، ثم في صلاة العيدين، لتظهر متخطية كل الحواجز في الحج.

إبراز الوحدة في أسمى تجلياتها

تتجلى الوحدة في أسمى تجلياتها في مجتمع الحجيج، حيث كل من تشرفوا بتلبية النداء، يستعدون في وقت واحد تقريبا، متحررين النفقة الحلال والزاد الحلال، تاركين لأسرهم ما يكفيهم طيلة أيام أداء الشعيرة. وفي وقت واحد بعد أنْ يصلوا إلى البقاع الطاهرة، يتجهون إلى مكان واحد هو صعيد منى، ثم يصعدون إلى عرفات الله حيث يمكثون ساعات محددة في يوم عرفة، وهكذا بقية المناسك حتى الانتهاء من أداء الشعيرة. وهم في كل ذلك يلبسون لباسًا واحدًا، ويرددون شعارًا واحدًا «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، ويسعون إلى هدف واحد، وهو أن يتجلى عليهم المولى الكريم بمغفرة الذنوب. إنها الوحدة التي يجب أن تَسِم مجتمع المسلمين في كل أرجاء المعمورة، وحدة الهدف الذي يجعل من هذه الأمة خير أمة تضطلع برسالتها التي خُلِقت من أجلها. قال تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ

تتجلى الوحدة في مجتمع الحجيج، حيث يستعدون في وقت واحد تقريبا، متحرين النفقة الحلال والزاد الحلال، تاركين لأسرهم ما يكفيهم طيلة أيام أداء الشعيرة.

وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ آل عمران: ١١٠.
وهناك يشعر المسلم الحاج والمسلمون معه الذين يشاطرونه هذه المشاعر الإيمانية بانتمائهم لأمة تمتاز عن غيرها من الأمم بأنها تملك من مقومات الوحدة والاجتماع ما لا تملكه أية أمة من أمم الأرض، وأن بإمكانها أن تصنع الشيء الكثير إذا ما تآلفت القلوب، واجتمعت الكلمة، وترفعت عن الصغائر.

وتبرز هذه الوحدة في أكمل صورها وأبهى تجلياتها في البقاع الطاهرة، وقد احتضنت في بوتقتها كل من شهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، من جميع الأجناس والأعراق والأقطار والألوان. تجلَت أولى صور هذه الوحدة بشكل بسيط في صلاة الجماعة، ثم اتسعت دائرتها في صلاة الجمعة، ثم اتسعت بصورة أكبر في صلاة العيدين الفطر والأضحى، لتظهر متخطية كل الحواجز والمعوقات في الحج، حيث شرف الزمان والمكان.

المساواة وتجلياتها الحضارية

في مجتمع الحجيج يتجلى مظهر إيماني عظيم آخر، وهو المساواة؛ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) الحجرات :١٣، وقال صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: «يا أيّها الناسُ إنّ ربّكمْ واحِدٌ، ألا لا فضلَ لِعربيّ على عجَميّ ولا لِعجَميّ على عربيّ ولا لأحمرَ علَى أسْودَ ولَا لأسودَ علَى أحمرَ إلاّ بالتّقوَى، إنّ أكرَمكمْ عند اللهِ أتْقاكُمْ».

إن وحدة الهدف، وهو «الولادة الجديدة»، لأن (مَن حَجّ لِلّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، ولَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَومِ ولَدَتْهُ أُمّهُ)؛ ووحدة الشعار، إذ يلهجون بشعار التلبية (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريكَ لك)، الذي يعني الانقياد والخضوع التام لرب البرايا؛ ووحدة اللباس، فهم جميعا يرتدون نفس الزي الأبيض الذي يحرر الإنسان من طبقته الاجتماعية ومن غناه ومن وجاهته واهتمامه بملبسه وزيه؛ كلها ملامح تعبر عن أنصع صورة لمبدأ المساواة؛ فالفقير بجانب الغني، والرئيس بجانب المرؤوس، فلا فضل لأحد على أحد، ولا تفاخر لأحد على أحد.

ويبقى هذا الأثر وينتقل ويتطور خارج مجتمع الحجيج، ليعم كل المجتمعات الإسلامية، ويعطي صورة حضارية حقيقيّة للمجتمعات الإنسانية الحقة التي تنتصر للإنسان وقضاياه؛ لتحرره من كل ربقة تحول بينه وبين أن يكون عضوًا فاعلا يشارك في تنمية مجتمعه، ونهضة بلاده، ويكون نموذجًا لغيره يُقتدى به في مجتمعه وفي المجتمعات الأخرى، ووسيلة من وسائل الدعوة إلى الإسلام، ويصحح الصورة المغلوطة في بعض البلاد عن الإسلام ومبادئه، وعن المسلمين.

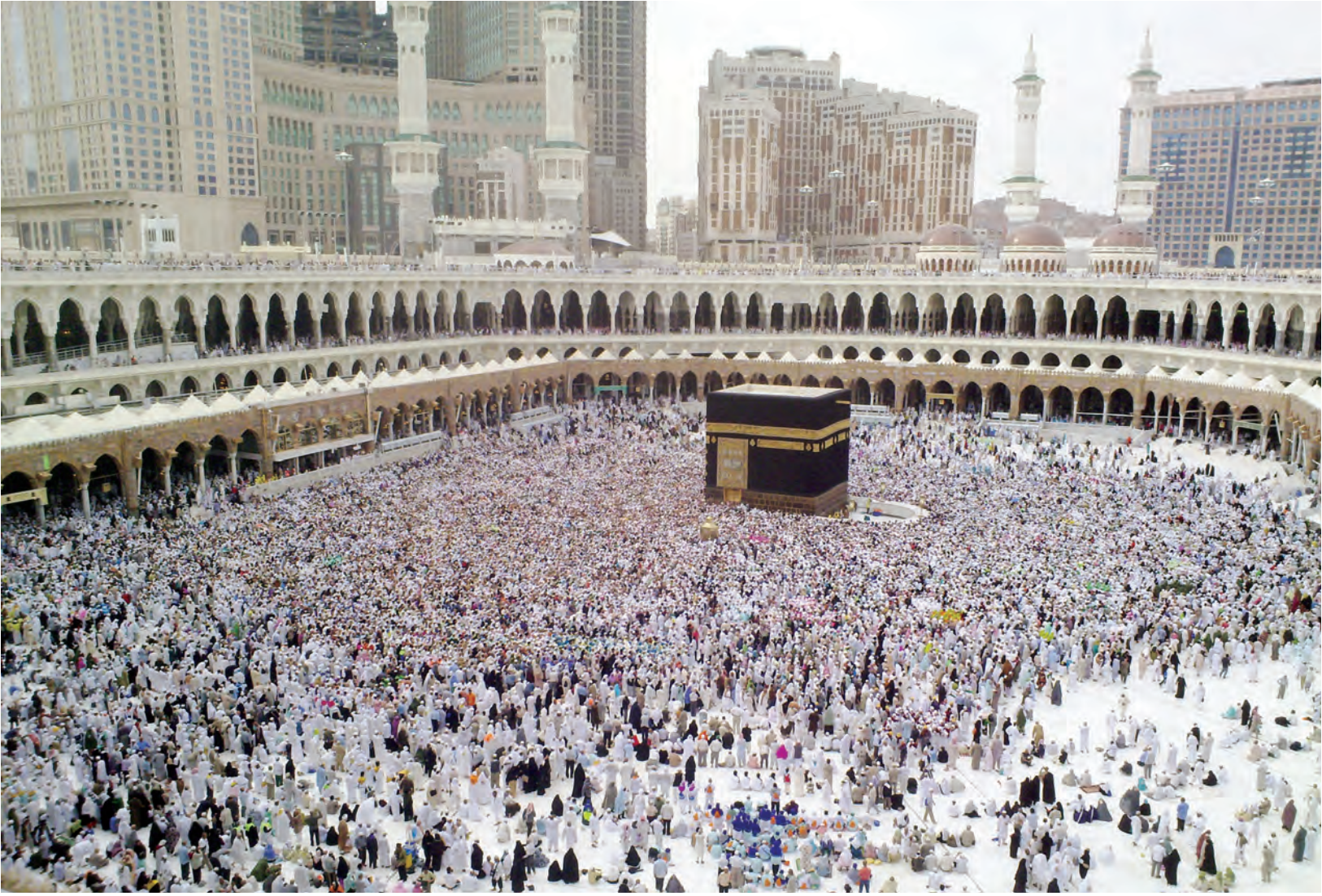

من مظاهر تعظيم شعائر الله في الحرم

إعداد: الدكتور حسن عزوزي ـ فاس

■ منذ النداء الخالد الذي أمر فيه الله تعالى رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بدعوة الناس إلى حج بيته الحرام {وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات ...} (الحج ٢٧-٢٨) أصبح لمكة المكرمة مكانة قدسية في قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأضحى الجميع يتشوفون إلى زيارتها وأداء مناسك الحج ولو مرة واحدة في العمر.

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر البلد الأمين (مكة المكرمة) في أكثر من آية وبأكثر من اسم، فهي البلد (إبراهيم:٣٥، والبقرة:١٢٦)، والبلدة (النمل:٩١)، وأم القرى (الشورى:٧) وبكة (آل عمران:٩٦)، وهي القرية (محمد:١٣)، ومكة (الفتح:٢٤). كما سماها الله تعالى بالحرم في قوله تعالى {أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم} (العنكبوت:٦٧).

أما المسجد الحرام فقد نصّت كثير من آيات القرآن الكريم على هذه التسمية علما على المسجد الذي بداخله الكعبة المشرفة، وجاء التعبير القرآني عليه بأكثر من اسم منها: البيت الحرام (المائدة:٩٧)، وبيتك المحرم (إبراهيم:٣٧)، والبيت العتيق (الحج:٢٩)، والبيت (البقرة: ١٢٥/١٥٨)، والبيت المعمور (الطور:٤).

مقومات الأمن في الحرم

إن الله تعالى إذا أراد إحداث شيء في هذا الكون فإنه يهيئ أسبابه، وإذا كان الأمن من سنن الله التي وضعها لحفظ الأمة ورعايتها فإن للأمن نفسه مقومات لا يمكن أن يتوفر بدونها، ووسائل تدعمه لا يمكن أن يكون بدونها، وإذا كان الله قد جعل بمكة بيته المحرم وهو باق إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فإن ثمة مجموعة من المقومات توجب الأمن في هذه البقعة الطاهرة منها:

وضع حدود للحرم: ولا شك أن لحدود الحرم دورا كبيرا في تحقيق الأمن المكاني، فإن المسلم عندما يصل إلى حد الحرم يشعر بأنه ولج مكانا معينا له أحكام خاصة لا بد أن ينضبط لها، ولولا هذه الحدود لما كان للأمن المكاني معنى، ثم إن ترك الحرم دون حدود يجعله مسرحا للانتهاك والتقلص حتى ينتهي به المطاف إلى نقطة من الأرض
لا قيمة لها.

حرمة الزمان: المقصود بالزمان الأشهر الحرم وهي:ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، وحرمتها لازمة لا تنفك عنها. ويدل على حرمة الأشهر الحرم قوله تعالى (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم
فلا تظلموا فيهن أنفسكم) (التوبة: ٣٦) والظلم وإن كان منهيا عنه في كل شهر من أشهر السنة كلها إلا أن «تخصيص» هذه الأشهر بالنهي عن

الظلـم فيها تشـريف لها وهذا مثـل قوله تعالى (فلا رفث ولا فسـوق ولا جدال في الحج) (البقرة: ١٩٧)

وسمى الله عز وجل هذه الأشهر «حرما» لزيادة حرمتهـا وتحريم القتال فيهـا. وأكد النبي صلى الله عليه وسـلم حرمـة الزمان وحرمـة المكان في حجـه، حيث قال للمسـلمين: «فـإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا».

وإذا تقـررت حرمة الزمان، وجب على المسـلم المحافظة عليها بعدة أمور منها:

أولا: الحرص على الأمن والمحافظة عليه في هذه الأشهر، وبخاصة في أماكن أداء المناسك في الحج والعمـرة، لأن الله تعالى أمر به ونهى عن ضده، فقال سبحانه (فلا تظلموا فيهن أنفسكم).

ثانيا: حرمة القتال، فلا يجوز لمسـلم أن يعتدي علـى مسـلم ويقاتلـه في أي زمـن كان، وتزداد الحرمـة ووزرهـا إذا كان هـذا القتـال في مكـة المكرمة وفي الأشهر الحرم.

ثالثا: الحرص على اجتناب المعاصي والسـيئات كلهـا صغيرها وكبيرها في الأشـهر الحرم حرمة للزمان، إذ الذنـب فيها يعظم كما يعظم العمل الصالح وأمره.

قدسـية المكان: مكـة المكرمة حـرم آمن، قال تعالى (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا) (العنكبوت: ٦٧)، وقال عز وجل (أو لم نمكن لهم حرما آمنا) (القصص: ٥٧)، حيث ربط الشـارع الحكيم أمن مكة بحرمتها وربط الحرمـة بالمكان المقدس، فهنـاك ارتباط وثيق بيـن العناصر الثلاثة: الأمن والحرمـة والتقديـس، فالأمن إنمـا جعل ليعبد الله عـز وجل وليعبده المؤمنون به وهم آمنون لا يروعهـم أحد، فلا يخافـون أن تصيبهم فتنة في دينهم وأرواحهم وأموالهم، لذلك كان هذا النوع مـن الأمـــن المرتبـط بالمـكان المقدس من أعظم العوامل المؤدية لحفظ مقاصد الشرع في الخلق ومن أجلها وآكدها حفظ الدين والنفس.

وقـد دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ربه فقال (رب اجعـل هذا بلـدا آمنا) فمكـة المكرمة بلد آمـن بوعـد الله تعالـى (وإذ جعلنا البيـت مثابة للنـاس وأمنا) (البقـرة ١٢٥)، أي يأمـن فيه كل أحد حتى الوحوش والطيور والأشجار لا يتعرض فيـه لهـا. وإذا أمـن الشـجر والصيد مـن القطع والقتـل بل ومن الترويع فـإن الآدمي أولى بهذا الأمن لتضافر النصوص على الدلالة عليه.

تأهيـل المكان وتعميره: فالمقصد الأسـمى من الأمـن المكانـي تأميـن أهلـه سـواءً أكانـوا من سـكانه الأصليين أم عمـاره وحجاجه وذلك على جميـع المسـتويات: الأمـن الغذائـي والروحـي والاجتماعي. ولذلك قضـى الله تعالى أن تتحول مكـة المكرمـة من مكان جدب وقفـر إلى قرية عامرة آهلة بالسكان، وقديما سأل إبراهيم عليه الـسلام الله تعالى الأمن في نفس المكان وسـأله أن يجعـل أفئـدة النـاس تهوي إليهـم {ربنا إني أسـكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحـرم ربنا ليقيموا الـصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون} (١٦).

والمثير للانتباه أن مدينة بهذا القدر تحتاج عادة إلـى حماية جنباتها بالأسـوار العاليـة والحصون المنيعـة كمـا هـو الشـأن في المـدن العتيقة في معظـم البلـدان الإسلامية، إلا أن مكـة المكرمة لـم تحتـج في يوم من الأيام إلـى اتخاذ مثل هذه الاحتياطـات الأمنيـة، وبقيـت على مـر التاريخ دون أسـوار أو قلاع لأن الأمـن محفوظ بها بإذن الله تعالـى ولأن فيها بيتا له رب يحميه كما قال عبد المطلب لأبرهة الحبشي.

من مظاهر تعظيم شعائر الله في الحرم وأثناء الحج

لا شـك أن شـعائر الله داخـل الحـرم ينبغـي أن تعظم ويجب وجوبا قاطعا اعتقاد تعظيمها، فمن هَـم بالمعصية في الحرم خالـف الواجب بانتهاك حرمته.

قـال تعالى (يا أيهـا الذين آمنوا لا تحلوا شـعائر الله ولا الشـهر الحـرام ولا الهـدي ولا القلائـد ولا آمين البيت الحرام) (المائدة ٢).

وتعظيم شعائر الله عبادة مشروعة بنص الكتاب والسنة وإجماع الأمة سلفا وخلفا.

وفيما يلي استعراض لبعض مظاهر تعظيم شعائر الله في الحرم والتي تتضمن مواقف في الاعتقادات والعبادات والمعاملات يجدر الحرص على مراعاتها والأخذ بها التزاما بمبدأ وجوب تعظيم شعائر الله في الحرم وعدم الإلحاد فيه كما في قوله تعالى (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) (الحج ٢٥).

تجنب اقتراف كبائر الذنوب: من معلوم أن الكبيرة هي كل معصية يترتب عليها حد في الدنيا أو عقوبة أو توعد بالنار أو عذاب أو لعنة، وإذا كان اقتراف الكبائر في سائر البلدان أمرا ممقوتا لا يقربه إلا ضعاف الإيمان فإن اقترافها في الحرم وفي أيام الحج يعتبر جناية عظيمة وظلما كبيرا ولذلك قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى {فلا تظلموا فيهن أنفسكم} (التوبة:٣٦) أي في هذه الأشهر المحرمة لأنها آكد وأبلغ في الإثم من غيرها.

وقال القرطبي في تفسير نفس الآية: «لا تظلموا فيهن أنفسكم بارتكاب الذنوب لأن الله سبحانه وتعالى إذا عظم شيئا من جهة واحدة صارت له حرمة واحدة وإذا عظمه من جهتين أو جهات صارت حرمته متعددة فيتضاعف فيها العقاب بالعمل السيء كما يضاعف الثواب بالعمل الصالح».

تفادي ارتكاب المعاصي والذنوب: هنا يتعلق بالمعاصي التي قد لا ينظر إليها المسلم كما ينظر إلى الكبائر فيوهم نفسه أن الأمر لا يعدو أن يكون من الصغائر أو مما اختلف في حكمه بين الحرمة والكراهة أو شيء من هذا القبيل، ولا شك أن المسلم داخل الحرم عندما يقف متأملا في مثل هذه المعاصي المذكورة وغيرها إذا كان ممن يحس بقدسية المكان وروحانيته وخصوصيته فإنه لا يملك إلا أن يذعن للحق في اعتبار تلك الأمور المرتكبة معاصي ذات بال يستحي المؤمن من الإقدام على اقترافها. وقد كان السلف الصالح يقدرون حرمة البيت ويعظمونه في نفوسهم حتى إن منهم من كان يتقي سكن مكة خشية الوقوع في المعاصي، ولذلك روي عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال: «لأن أخطئ سبعين خطيئة أحب إلي من أن أخطئ خطيئة واحدة بمكة»، وكان

ولا شك أن لحدود الحرم دورا كبيرا في تحقيق الأمن المكاني، فإن المسلم عندما يصل إلى حد الحرم يشعر بأنه ولج مكانا معينا له أحكام خاصة لا بد أن ينضبط لها

لعبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) فسطاطان أحدهما في الحل والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الحل وإذا أراد أن يصلي صلى في الحرم.

وهذه الكراهة لا تنافي فضل البقعة، ولكن ترجع إلى ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق المكان وحرمته، وخوفا من ركوب الخطايا والمعاصي التي قد يألف الإنسان الوقوع فيها عندما يطول مكثه بالحرم، ولذلك روي عن سعيد بن المسيب أنه قال لرجل من أهل المدينة جاء يطلب العلم بمكة: ارجع إلى المدينة فإنا كنا نسمع أن ساكن مكة لا يموت حتى يكون الحرم عنده بمنزلة الحل.

عدم التساهل والتهاون في تعظيم شعائر الله في الحرم: ويحصل ذلك من خلال مواقف عديدة يقف فيها الإنسان متهاونا في أداء الواجبات والانتهاء عن المحرمات، ولا شك أن قدسية الحرم الشريف جعلت منه مكانا يختلف عن سائر الأمكنة والأمصار، فالجرم فيه عظيم والذنب فيه جسيم، والسيئة فيه إما تضاعف أو تغلظ حتى إن بعض أهل العلم ذهبوا إلى أن المعصية في البلد الحرام تضاعف كما تضاعف الحسنة وقد سئل ابن عباس (رضي الله عنه) عن مقامه خارج مكة فقال: «ما لي ولبلد تضاعف فيه السيئات كما تضاعف الحسنات»، وقال القرطبي في تفسيره: «والمعاصي تضاعف بمكة كما تضاعف الحسنات فتكون المعصية معصيتين إحداهما بنفس المخالفة والثانية بإسقاط حرمة البلد الحرام»، ويقصد القرطبي بذلك التساهل والتهاون في تعظيم الحرم وما يمثله في قلوب المسلمين من قدسية وحرمة. بالمقابل ذهب بعض أهل العلم إلى أن السيئة تغلظ ولا تضاعف واستندوا في ذلك إلى كون السيئة كما في الحديث جزاؤها سيئة، يقول ابن القيم رحمه الله: «القائل بالمضاعفة أراد مضاعفة مقدارها أي غلظها لا كميتها في العدد، فإن السيئة جزاؤها سيئة لكن السيئات تتفاوت، فالسيئة في حرم الله وبلاده على بساطه أكبر وأعظم منها في طرف من أطراف البلاد».

ولا شك أن القول بمضاعفة السيئة في الحرم أو القول بتغليظها كلاهما يفرض على المسلم أيا كان مستوطنا أو مقيما فيه أو وافدا إليه أن يحترم حرمته ويراعي قدسيته وخصوصيته وأن يضبط نفسه فلا يطلق العنان للسانه بالكلام الموقع في مختلف آفات اللسان المنصوص عليها أو أمراض النفس المقررة من طرف العلماء، إذ لا ريب في أن من يقع في الغيبة أو النميمة أو سب الناس وشتمهم والكذب عليهم كل ذلك يعتبر تهاونا بشأن مراعاة حرمة المكان وقدسيته فيكون المرء بذلك قد اجترح سيئات قد تضاعف وقد تغلظ، وليست -كما قد يتوهم- كباقي السيئات المجترحة في سائر بلاد الله تعالى.

اتقاء جميع الصور لتسييس فريضة الحج: إذ من المعلوم أن الله تعالى الذي جعل البلد الحرام بلدا آمنا قد جعل جميع الشعائر المرتبطة به جليلة ومعظمة في النفوس،

ولا شك أن أعظم الشعائر الزمانية والمكانية المرتبطة بالبلد الحرام هي شعيرة الحج التي افترضها الله تعالى على المسلمين مرة في العمر، والحج يعتبر مؤتمر المسلمين السنوي الذي يلتئمون فيه في صعيد واحد، وقد هبوا من أصقاع العالم ملبين النداء الرباني العالمي ﴿وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق﴾(الحج:٢٧)، وحجاج بيت الله الحرام وقد أعدوا العدة الكاملة لأداء مناسك الحج في يسر وسهولة ينتظرون

عند وصولهم إلـى مكة أن يجدوا فيها كل الأمن والأمـان مما من شـأنه أن يسـاعدهم على أداء الفريضة على أكمل الوجوه.

وقـد أكد علماء الأمة في جميع الأقطار الإسلامية بأن الحـج ليس مكانا لتصفية حسـابات طائفية فذلـك ممـا يعتبـر محرمـا شـرعا لأنـه مدعاة للفرقة والتنازع والجدال، وكل ذلك مما يتنافى ومقصود الوحدة وإخلاص العبادة لله، كما في ذلك اسـتحداث أحوال جديدة في عبادة الحج لم يأذن بهـا الله تعالى، وتتعارض مـع مقاصد العبادات التـي لأجلهـا شـرعها الله فـضلا عـن كـون ذلك يعتبر إرهابا للآمنين وقضاء لمضاجع الساكنين وإحداثـا للفتنـة بيـن المسـلمين، إذ لا رفـث

ولا فسـوق ولا جـدال في الحـج والبلـد الحـرام والأشهر الحرام. والتاريخ يشهد بأن كل من أراد إحداث فتنة في الحج فإن فتنته تنكشف وإجرامه يجهض.

خاتمة:

لا شك أن وفود المسلمين في كل عام إلى الديار المقدسـة لأداء الحـج والعمـرة بأعـداد هائلـة ومـن بلدان ومجتمعات مختلفـة وتنقلهم بين مشـاعر عديدة وفي أوقات وأزمنـة محددة، كل ذلك يجعل من توفيـر الأمن والأمان لهم مطلبا ضروريا ومقصدا هاما لأنه لا يمكن للمسـلمين أن يـؤدوا عباداتهـم وشـعائرهم وإتمـام ما من أجله أتوا بدون أمن، وقد أمر الله تعالى أن يكون حرمـه آمنـا وبيتـه ملاذا للطمأنينة ومسـتقرا للسكينة.

ويعتبـر الحديث عن مظاهر تعظيم شـعائر الله في الحـرم مدخلا يحقق التوعيـة بما ينبغي على سـاكن الحـرم أو زائـره تجنبـه من أجـل إبقاء جنبـات الحـرم محترمـة وموقـرة ومعظمـة، ولا شـك أن تحقيـق ذلك يضمن جـوا من الأمن والطمأنينة والسكينة.

وإذا كان اقتـراف الكبائـر في سـائر البلـدان أمـرا ممقوتـا لا يقربـه إلا ضعـاف الإيمـان فـإن اقترافهـا في الحـرم وفي أيـام الحـج يعتبـر جنايـة عظيمـة وظلمـا كبيـرا

ولا ينكـر أحد ما تعمل حكومة المملكة العربية السـعودية على توفيـره من الخدمـات وتهيئة مختلف السـبل للمحافظة علـى كرامة الحجيج ومسـاعدتهم على أداء مناسـك الحج بسـهولة ويسـر وعلى تعظيم شـعائر الله وفـق الضوابط المشـروعة والطرق المسـنونة، ولذلـك فهناك حـرص بالغ مـن طـرف الهيئات والمؤسسـات العاملـة في هـذا الإطـار من أجـل تأصيل معنى تعظيـم شـعائر الله في قلوب جميع المسـلمين ليكـون الحرم الشـريف كمـا أراد الله تعالى آمنا ومعظمـا يتحقـق فيـه المجتمع المثالـي الذي يحتـذى بـه في الحفـاظ علـى الأرواح والأمـوال والأعـراض والعنايـة ببيئته وتطهيـره وإعماره فـضلا عـن تحقيـق قيمـة العزيمـة في نفـوس المقيمين فيه والوافدين عليه من خلال الرقابة الذاتية على الأقوال والأفعال والمعتقدات سـدا لذريعـة الوقـوع في مختلف صـور الإلحاد وعدم تعظيم شـعائر الله المنهي عنهـا، وهو ما يتأتى بقـوة عبر تعزيز وترسـيخ ثقافة العلـم بأحكام وآداب البلـد الحرام. وهي ادعـى لتقوية الإيمان وترسيخ التقوى في القلوب مصداقا لقوله تعالى ﴿ذلـك ومـن يعظم شـعائر الله فإنها مـن تقوى القلوب﴾ (الحج٣٢).

أكدت عليها رؤية 2030

خدمات الحجاج والمعتمرين الأولوية والتميز

بقلم: محمد سعيد أحمد الغامدي ـ جدة

■"إنّنا في المملكة العربية السعودية وقد شرفنا الله بخدمة الحرمين الشريفين وقاصديهما نذرنا أنفسنا وإمكاناتنا، وما أوتينا من جهدً قيادة ً وحكومة وشعبا لراحة ضيوف الرحمن، والسهر على أمنهم وسلامتهم».

خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز -يحفظه الله

حملت المملكة العربية السعودية منذ تأسيسها شرف خدمة ضيوف الرحمن، فأصبحت مكة المكرمة والمدينة المنورة في صلب اهتماماتها، فسعت دائماً لبذل الغالي والنفيس في خدمتها وخدمة ضيوف الرحمن، وامتداداً لذلك وضعت الرؤية السعودية ٢٠٣٠ مكانا في برامجها ومشاريعها الكبرى منطلِقةً من كون المملكة مهبط الوحي ومنبع الرسالة الإسلامية وقلب العالم الإسلامي، فسعت هذه الرؤية وبشكل كبير في خدمة الأماكن المقدسة وتطويرها وخدمة قاصديها، مجسدةً أصالة وكرم أبناء هذه البلاد قيادة ومواطنين في استقبال الحجاج والمعتمرين بحفاوة، ولتواصل المملكة مسيرتها في تيسير قدوم المسلمين من مختلف أنحاء العالم مهما كانت أعدادهم.

لذا ومنذ أن أطلقت المملكة الرؤية في شهر أبريل من عام ٢٠١٦م بتوجيهات من خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز يحفظه الله، وبرعاية ومتابعة عرابها صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان ولي العهد رئيس مجلس الوزراء يحفظه الله، سعت هذه الرؤية المباركة، زيادة على تحقيق رقي المملكة في كافة المجالات وتحقيق رقي أبنائها ورفاههم، إلى إعطاء اهتمام منقطع النظير للحج والحجيج والمعتمرين وزائري الأماكن المقدسة، فوضعت

في سبيل تسهيل أمورهم وتحقيق راحتهم مختلف المشاريع الكبرى والبرامج، لتوفير سُبل الراحة والطمأنينة والأمن لهم منذ الخطوة الأولى لتحركهم من بلادهم مرورا بلحظة وصولهم وتنقلاتهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة حتى مغادرتهم، حيث وضعت كل التسهيلات بدءًا من توجه الحاج أو المعتمر أو الزائر لممثليات المملكة في أي مكان في العالم مرورا بتواجده في المدينتين المقدستين إلى أن يعود لبلاده محملاً بأطيب الذكريات.

من الملك المؤسس إلى الملك المجدد

بعد أن حقق الملك عبدالعزيز يرحمه الله رغبته في تطوير الأماكن المقدسة وإقامة المشاريع الأولى في العهد السعودي الزاهر، وبعد أن قام أبناؤه من بعده الملوك البررة الكرام ـ يرحمهم الله ـ بخطوات كبرى لتطوير وتحديث الأماكن المقدسة وتسهيل كل سبل الراحة للحجاج وقاصدي المدينتين المقدستين، أتى عصر الملك المجدد سلمان بن عبدالعزيز مسنودا بعضده الأمير محمد بن سلمان ولي العهد رئيس مجلس الوزراء، فحدثت النقلات الكبرى في مختلف المجالات والميادين وخاصة خدمة الحرمين الشريفين وقاصديهما، فالرؤية المباركة ومنذ إطلاقها هدفت لجعل الحج والعمرة سهلة ميسرة للجميع رغم حجم الحشود وتنوعها، فهي أكبر الحشود على مستوى العالم ـ حشود مليونية من مختلف الجنسيات والأعراق واللغات والثقافات تتنقل في وقت واحد وبكل انسيابية من مشعر إلى آخر. وللحقيقة فإن هذا العدد الضخم من البشر الذي يفوق مليوني حاج في مكان واحد وتسييرهم في وقت واحد من مشعر لآخر يُمثّل رهانا بل تحديا للمملكة لا مثيل له على وجه الأرض، وتحملته الحكومة السعودية وأنجزته بكل اقتدار ونجاح من خلال وضع كافة القطاعات الحكومية وخاصة الأمنية في خدمة هذه الحشود وإدارتها.

وإن مبادرة طريق مكة والتي هي إحدى منجزات الرؤية هي إحدى مبادرات وزارة الداخلية بالتعاون والتنسيق مع مختلف الوزارات والجهات المعنية في المملكة وخارجها، تهدف لتيسير أمور الحجاج وتوفير مستوى عالٍ من الخدمة والراحة من خلال تمكينهم من استكمال إجراءات قدومهم إلى المملكة بدءًا من مطارات بلدانهم مرورا بوصولهم ومن ثم نقلهم مباشرة إلى أماكن إقامتهم في مكة المكرمة والمدينة المنورة في وقت وجيز. هذه المبادرة (مبادرة طريق مكة) التي أُطلقت عام ٢٠١٨ كمرحلة تجريبية ثم في عام ٢٠١٩ أطلقت بشكل كامل أحدثت تغييراً جذرياً في إدارة الحشود وإدارة شؤون الحجاج، فمع وصول الحجاج إلى المملكة يتم نقلهم وأمتعتهم وبشكل سريع ومنظم إلى حيث إقامتهم خلال فترة الحج في مكة المكرمة أو خلال زيارتهم للمدينة المنورة، وبذلك اختصرت المملكة الوقت الطويل الذي كان يقضيه الحاج أمام منافذ الجوازات أو التنقلات العادية وما كان يُصاحب ذلك من وقت طويل ومن الانتظار وشيء من التعب.

إن الخدمات المقدمة لضيوف الرحمن لا تتوقف عند مختلف التسهيلات المتعلقة بأداء المناسك، بل تذهب إلى أبعد من ذلك إلى كل ما يضمن سلامتهم الصحية طوال فترة وجودهم في المملكة، حيث يحظون بالرعاية الكاملة وبالتأمين الصحي، وحج بلا حقيبة، وخدمة النقل الترددي في مختلف الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وضمان جودة الخدمات والمرافق، وخاصة بعد رفع جاهزية المملكة لاستضافة ملايين الحجاج والمعتمرين، بما قد يصل إجمالي العدد بحلول حج هذا العام ١٤٤٦هـ ٢٠٢٥م إلى ١٥ مليون حاج ومعتمر. لذا ومنذ بدء تطبيق الرؤية ومبادرتها «طريق مكة» تنامت الأعداد وقد يصل العدد لاحقاً إن شاء الله مع نهاية العشرية الأولى للرؤية إلى ٣٠ مليون حاج ومعتمر وزائر ـ أي بحلول عام ٢٠٣٠، وبذلك يكون قد تحققت نقلة كبرى في العدد، فمن ثمانية ملايين و٥٠٠ ألف حاج ومعتمر ما بين ٢٠١٦ـ٢٠١٩م إلى ما يقارب الـ ١٥ مليون حاج ومعتمر وزائر مع نهاية حج هذا العام ٢٠٢٥ وإلى أكثر من ٣٠ مليون حاج ومعتمر بحلول عام ٢٠٣٠م، وكل هذا من خلال تطوير شراكات فاعلة مع مختلف القطاعات العامة والخاصة وغير الربحية.

وكما ذكرنا فقد أطلق خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبدالعزيز آل سعود في شهر رمضان ١٤٤٠هـ عام ٢٠١٩م، برنامجه لخدمة ضيوف الرحمن، هذا البرنامج يُقدم خدمات ومرافق ذات

جـودة عالية وبُنية تحتية وخدمات رقمية تسـاعد الجميـع في أن ينعمـوا بتجربـة إيمانيـة مميـزة لا تُنسىَ.

إن برامـج رعايـة الحـاج والمعتمـر والزائـر في مختلـف شـؤون حياتـه اليوميـة خلال تواجده في المدينتيـن المقدسـتين هـي برامـج محورية في رؤيـة المملكة ٢٠٣٠ لما لها من أهمية قصوى لدى القيادة الرشـيدة. فهذه الرؤية التي وضع أسسها صاحب السـمو الملكي الأمير محمد بن سـلمان بن عبدالعزيز ولي العهد رئيس مجلس الوزراء ـ يحفظه الله ـ ساهمت وتساهم في تسهيل وتوفير الإقامة الطيبة والتنقل السـهل والتغذية السليمة والرعايـة الصحيـة المتكاملة والتوجيه والإرشـاد بصفة عامة.

لقـد أتاحـت رؤيـة ٢٠٣٠ الفرصة لأكبـر عدد ممكن من المسـلمين مـن أداء فريضة الحـج والعمرة والزيارة بكل يسـر وسـهولة، وهذا يُبـرز الصورة الحضارية للمملكة بلد الحرمين الشريفين مهبط الوحي وقبلـة المسـلمين. فالمملكة تمكنت من إكمال أكبر توسعة للحرمين الشريفين في التاريخ الإسلامـي، كمـا أن تطويـر المشـاعر المقدسـة وتهيئتهـا ووضـع كافـة وسـائل الإقامة والسـكن المريح فيها وتكامل وسـائل المـواصلات وخاصة شـبكة قطار «المشـاعر» في مكـة المكرمة، «قطار الحرميـن» الـذي يربـط المدينتين المقدسـتين والـذي قام خلال حج العام الماضي ١٤٤٥هـ ٢٠٢٤م بتشـغيل ما يقـارب أربعة آلاف رحلة أسـهمت في توفيـر سـعة مقعدية تتجـاوز المليون وسـتمائة ألـف مقعد، وسـيتضاعف العدد في حـج هذا العام ١٤٤٦هـ. فالطاقة الاستيعابية لقطار الحرمين كبيرة وسـرعته فائقة حيث يُعتبر من أسـرع ١٠ قطارات كهربائيـة في العالم، بالإضافة لوسـائل المواصلات والتواصل الأخرى، كلها سـاعدت في إتاحة الفرصة لاستيعاب الأعداد المتزايدة سنويا.

وطبعا لا يتوقف طموح المملكة، في إطار رؤية ٢٠٣٠ عند حسـن ضيافـة وخدمة الحجـاج والمعتمرين فقط، فهي تسـعى خلال هذه السنة وما يليها من السنوات القادمة إلى أن تكون جميع إجراءات الحج إلكترونيـة بداية من القدوم وحتـى المغادرة إلى بلدانهـم. أي ضمان جودة الخدمات وتوفير سـبل الراحـة والحفـاوة بهم علـى أكمل وجه والسـعي لنيـل رضاهم حتى مغادرتهـم. إن خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده الأمين يحرصون على تقديـم أفضل الخدمـات لضيوف الرحمـن، ولهذا الهدف أُنشيء برنامج ضيوف الرحمن ضمن رؤية ٢٠٣٠. وأيضاً وزارة الحج والعمرة ومنذ تأسيسـها، تقوم بـأدوار متعددة لخدمة ضيوف الرحمن وهو دور حيـوي وهـام ومتنام منذ بـدء تطبيق الرؤية وخاصـة هـذا العـام بتنفيًـذ برامج رؤيـة حكومة المملكة العربية السـعودية، فيما يتعلّق بتيسـير استقبال الحجاج والمعتمرين.

إن ضمان الأمن واستتبابه في الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة وخاصة خلال موسم الحج هو من أهـم بل من أولويـات القيادة الرشـيدة التي تسعى إلى ضمان سلامة الحجاج ونجاح الموسم، أي ضمـان انسـيابية سـير الحجـاج في مختلـف المشـاعر المقدسـة وراحتهـم خلال ممارسـتهم شـعائرهم. وكمـا هـو معـروف فمنـذ أن فُـرض الحج، أصبح موسـمه موسـم تبادل للمنافع على مر العصور، كما ورد في القرآن الكريم «وليشهدوا منافـع لهم ويذكروا اسـم الله في أيـام معلومات.. الآية»، وهذا أيضا أُخذ في الحسبان من قِبل الجهات المعنيـة، لينعـم الحجاج والمعتمـرون بما يمكن الحصـول عليـه من ذكريـات جميلة مـن الأماكن المقدسـة وأيضا من الأماكـن الإسلامية التاريخية والأسواق التاريخية التي يزورونها.

لقـد سـعت المملكة مـن خلال منظومة خدماتها الصحيـة لضيوف الرحمـن إلى توفيـر التجهيزات الحديثـة بـل الأكثـر تطـورا في مستشـفيات مكة المكرمة وفي المشاعر والمراكز الصحية المتنقلة. وكذلـك في المدينـة المنورة، وضمـان توفير كافة الخدمات وأحدث وسائلها وتقنياتها.

وإن الشـركات والمؤسسـات المنبثقة عن الهيئة الملكية لمدينة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة التي يرأسـها سـمو ولي العهد، لها الدور المباشر والميدانـي في إنجـاز كافة المشـاريع التـي كُلفت بهـا لتقديـم الخدمـات المتنوعـة خلال موسـم الحج ومواسـم العمـرة. وتحققت عبر الشـركات الوطنية مسـارات مطـورة في المشـاعر ووضعت بهـا أرضيـات مطاطيـة ودهانـات لتخفيـف درجة حرارة الأرض خلال الممشى في الطريق أو المسار الـذي يسـلكه الحـاج، وزيـادة الطاقـة التبريديـة لمسـاجد المشـاعر، ونفـذت مشـروعات تبريـد الأسطح والطرق الإسفلتية لتخفيف درجة الحرارة وليُسـهل ويُسـرّع في الحركة والانسـيابية، إضافة لتغطيـة هـذه المسـارات وكثيـر مـن الأماكن في

المشاعر المقدسة بغطاء أخضر أي بأنواع ملائمة مـن الأشـجار للتقليـل مـن آثـار المنـاخ، وتهيئة وتهذيـب مواقـع ما بيـن المشـاعر وبمسـاحات كبيـرة لكي لا يتعب الحاج أو يحس بالإنهاك. وهنا نُذكّر بأن طريق المشاة في المشاعر المقدسة من جبـل الرحمـة في عرفات مـرورا بمزدلفة ووصولا لمنـى والذي هو بطول ٢٥ كيلـو متر يُعتبر أطول مسار أو ممر مشاه في العالم، حيث يشهد كل عام حركة سـير. وعلى امتداد هذا الطريق أو المسـار تتوزع نقاط ضخ رذاذ الماء تلطيفا للأجواء وتخفيفا للحرارة، وتوزع على الحجاج مظلات فردية لتحمي رؤوسهم من حرارة الشمس وضرباتها.

ورفعت الطاقـة الكهربائية من أجل ضمان أجهزة تبريـد عاليـة الجـودة، وتضاعفت خطـوط المياه والمرافـق الصحيـة، ففي مجال توفيـر المياه بلغ الخـزن التشـغيلي العـام الماضـي أكثـر من ٣,٢ ملاييـن متر مكعب بمتوسـط ضـخ يومي يتجاوز ٧٥٠ ألـف متر مكعـب، كما وضعت علـى جوانب المسـارات والطـرق أكشـاك تجاريـة تضفي على الحاج شـيئا من البهجة. ولخدمة ذوي الاحتياجات الخاصـة وتوفير الراحة لهم ولكبار السـن وضعت عربـات (الجولـف) وعربـات يدويـة في كل مـن المسجد الحرام والمشاعر وفي المسجد النبوي.

وقـد تم وضـع مركبـات ذاتيـة القيـادة لتوصيل الطلبـات داخـل المشـاعر المقدسـة بالإضافـة لمركبـات النقـل المبـردة ذاتية القيـادة. وبذلك يتضـح أن المملكـة العربية السـعودية قفزت في هذا الشـأن للمرتبة الـ ١٧ عالميا في مؤشر الكفاءة اللوجسـتية الصادر عـن البنك الدولـي عام ٢٠٢٣، بعـد أن حققـت قفـزات واسـعة في كفـاءة الأداء عبر عدد من المؤشـرات الفرعية وأبرزها مؤشـر الكفـاءة اللوجسـتية، ومؤشـر التتبـع والتعقـب، ومؤشـر التوقيـت، ومؤشـر الجمـارك، ومؤشـر البنى الأساسية، ومؤشر الشحن.

إن المملكـة قـد تمكنـت بفضـل مـن الله من أن تحقق كل عـام حجًا ناجحًا. وكل عام من نجاح إلى نجاح أكبر يحقق للحاج والمعتمر والزائر ما يصبو إليـه من التوفيق في كل أموره، يضاف إلى ذلك أن الـوزارات المعنيـة في المملكة وأيضـا المنظمات والهيئات المتواجدة على ثراها تستضيف كل عام عددًا من كبار الشـخصيات المتخصصة في الشـأن الإسلامي والفكري والثقافي، حيث يتم استضافتهم مـن مختلـف أصقـاع الأرض تقديـرًا لجهودهم في خدمة الإسلام.

إضافـة لذلـك وضعـت الدولـة، من بـاب الاطلاع والإلمام بتاريخ الأماكن المقدسة، رحلات وزيارات تثقيفية للمواقع التاريخية والأماكن الأثرية لينعم ضيـف الرحمـن، زيـادة علـى تجربتـه الإيمانيـة، بتجربـة ثقافيـة ثريـة عن الآثـار الإسلاميـة وعن المملكة وتاريخها بصفة عامة.

نختـم فنقـول إنه لا يمكـن لنا في هـذه المقالة أن نسـرد كل ما تـم تحقيقه في الحرمين الشـريفين والمشاعر المقدسة، ولكن دون أدنى شك نود هنا أن نُذكّـر بـأن ما تمكنـا من ذكره في هـذه المقالة وعن ما تم إنفاقه من أجل التوسعات والتطويرات ووضع مئات الآلاف من السـعوديين رجالاً ونسـاء في خدمـة الحجـاج وحفظ الأمن وضمـان السلامة الصحيـة والراحـة في أداء المناسـك مـن خلال إدارة حشـود ملاييـن من البشـر في وقـت ومكان واحد سـواء في الحـرم المكي أو في المشـاعر أو في مدينـة الرسـول صلـى الله عليه وسـلم لهو بحق نجـاح منقطع النظير، وتأكيد بـأن رعاية الحرمين الشريفين والمشـاعر المقدسة هي أولوية كبرى للدولة السعودية وهدف تُسخرُ له جميع الإمكانات البشرية والمادية، فلقد أنفقت المملكة حتى الآن بلايين الريالات، وهناك توقعات بأن تنفق المملكة حتى بداية ٢٠٤٠م ما يصل إلى ٧٢٣ مليار ريال.

إذاً لا بـد هنـا مـن القـول وبـكل فخـر إنـه وفي ٩ سـنوات فقـط حققت رؤية المملكـة ٢٠٣٠ منذ إطلاقهـا عـام ٢٠١٦م إنجـازاً يصـل إلـى ٩٣٪ من أهدافهـا وذلك حسـب التقرير السـنوي الصادر في إبريـل٢٠٢٥م، وكان للمدينتيـن المقدسـتين وخدمات الحجاج والمعتمرين المكان المهم بل الأولوية في الرؤية. وقد دخلت المرأة السـعودية وبشـكل كبير إلى ميدان خدمة ضيوف الرحمن بفضـل الرؤيـة حيـث شـاركت بفعاليـة وكان لحضورهـا أثـر واضـح في دعـم العمليـات ورفع مسـتوى الخدمة بفضل كفاءتها العالية. إن أبناء المملكـة قيادة وشـعبا -رجالا ونسـاءً- يفخرون بخدمة إخوانهم المسـلمين حجـاج ومعتمرين وزائرين، وبتسـخير كل ما يحقق لهم الروحانية والراحـة والطمأنينة وما يضمـن نجاحهم في أداء شعائرهم بكل يسـر وسهولة وعودتهم سالمين غانمين إلى بلدانهم.

الهجرة ودورها في توطين الإسلام في أوروبا

عرض: الزبير مهداد ـ المغرب

■ صدر حديثا كتاب «الهجرة ودورها في توطين الإسلام في أوروبا - تحديات التعايش والاندماج، بريطانيا نموذجًا»، من تأليف عالم الاجتماع العراقي المقيم في أوروبا حميد الهاشمي.

يتناول الكتاب الدور الذي لعبته التجارة والهجرة في انتشار الإسلام في عدة دول من العالم، جاعلا من بريطانيا مثالا لذلك، فاستعرض تاريخ الهجرات إلى المملكة المتحدة، وأصول المهاجرين، والمهن التي اشتغلوا فيها، وكيفية اندماجهم في المجتمع البريطاني، حتى أضحوا جزءا من مكونات المجتمع البريطاني، والمشاكل التي اعترضتهم، ومدى تقبل البريطانيين لهم، ولعقيدتهم الإسلامية، وثقافاتهم الشرقية، وتقاليدهم الجديدة.

فصول الكتاب

يقع الكتاب في ٣٠٤ صفحات، ينقسم إلى ١٠ فصول. جريا على التقليد العلمي، تضمن الفصل الأول تعريفا عاما بالبحث وأهدافه وفرضياته، ومنهجه.

في الفصل الثاني تعريف بالمملكة البريطانية، وهجرات المسلمين الأولى نحوها، ودورهم في خلق تنوع عرقي وثقافي وديني في البلد.

ثم تطرق الحديث في الفصل الثالث إلى أوضاع الجاليات المسلمة، وأحوالها الاجتماعية والاقتصادية، وثقلها السكاني، وخصائصها الجنسية والعمرية والتعليمية والصحية، وتوزعها على سائر مناطق البلد وأقاليمه.

واصل المؤلف الحديث في الفصول الرابع والخامس والسادس، في التعريف بالوجود الإسلامي في بريطانيا، وأصولهم من تركيا وباكستان وماليزيا والصومال وإيران، والبلاد العربية، وغيرها من الدول، والمؤسسات التي تضمهم كالمساجد والمنظمات والجمعيات، والتي تلبي حاجاتهم الروحية والثقافية، وتحفظ هويتهم، وتراعي خصوصياتهم المذهبية والإثنية. تسهم هذه المؤسسات في إدماج المسلمين في المجتمع البريطاني.

في الفصول السابع والثامن والتاسع تناول الكتاب موضوع انتشار الإسلام في بريطانيا، وفضل التجار والمهاجرين في ذلك، وقضايا اندماج الجاليات المسلمة في المجتمع البريطاني، ومدى تقبل البريطانيين لهم، وفشو النزعات القومية المناهضة للأجانب، وما تمثله من عرقلة تحول دون اندماج سلس.

وأبرز الباحث دور الطبيعة التعددية الاجتماعية والثقافية لبريطانيا، التي تحدد السياسة الحكومية تجاه الأجانب، من خلال برامج وسياسة استيطان، ومساعدة اجتماعية أكسبت بريطانيا خصوصيات أسهمت في استيعاب المجتمع البريطاني

للمسـلمين، علـى الرغـم مـن الملاحظـات التي يمكن تسـجيلها على تلك السياسـات والإجراءات الإدارية.

واسـتعرض الباحـث المشـكلات القانونيـة والاجتماعيـة والنفسـية والاقتصاديـة التي تواجه المسـلمين في بريطانيـا، وتشـكل ظروفـا صعبة تثقل كاهلهم، زاد من ثقلها تفشـي التطرف الذي يعـوق التبـادل الثقـافي والحـوار الحضـاري، بيـن القوميات الأصلية والوافدة.

يعـرض الكاتـب في الفصـل العاشـر مواقـف الأحزاب السياسـية البريطانيـة من قضية الهجرة واللجـوء والاندماج، ثم يتعرض لليمين المتطرف ودوافـع ظهـوره، وعنصريتـه العرقيـة، ومعاداته للمهاجريـن، وتخوفه من الإسـلام والمسـلمين، ووصمـة الإرهاب التي لحقت بالإسـلام في العقود الأخيـرة. ويشـير المؤلف إلـى مخاطـر التوظيف السياسـي لكراهية المهاجرين المسلمين، وأثره في عزلة المسـلمين وتجنبهم الانخـراط في الحياة السياسـية البريطانيـة، والتفاعـل معهـا، وهو ما يضرب بعمق المسـاعي الحكومية والمؤسسـات التـي تجتهـد في سـبيل إدمـاج سـائر المكونـات العرقية في المجتمع البريطاني، لتحقيق أكبر قدر من الاندماج الذي يترجم قيم تقبل الآخر.

أما الخاتمة فتركـز علـى المباحـث الختامية التي تلخـص العمـل: واقع الإسـلاموفوبيا وقراءة آفاق المسـتقبل بالنسبة إلى وجود الإسلام في المملكة المتحـدة، والخلاصة والاسـتنتاجات التي توصّلت إلـى بلـورة مفهـوم توطيـن الإسـلام ومقوّماتـه وتمثّلاتـه في المهجـر، خصوصًـا في المملكـة المتحـدة، إضافـة إلى توصيات عامة للمسـلمين فيها، أشخاصًا فاعلين ومؤسساتٍ.

الهجرة والتنوع

شـرح المؤلف بـأن ظاهرة الهجـرة وليدة نوعين مـن الأسـباب الاجتماعيـة والاقتصاديـة، النـوع الأول عوامـل طـاردة، متعلقـة بالمهاجـر الـذي دفعتـه ظروف شـتى لاختيـار الانتقال مـن وطنه نحـو أوطان أخرى بعيدة، بحثـا عن فرص الارتقاء الاجتماعـي. أو هربـا مـن المخاطـر الناشـئة عن الحـروب، أو التحـولات الاقتصاديـة وغيرهـا مـن العوامـل (ص١٧٩). والنوع الثانـي عوامل جاذبة، مرتبطة بالتحولات الاقتصادية والبشـرية الخاصة بـدول الاسـتقبال، كالحاجة إلى تنفيذ المشـاريع الاقتصاديـة، مثـل إنشـاء شـبكات المـواصلات الكبرى كالسـكك الحديدية، والموانئ، والمناجم، وترميم مـا دمرته الحرب العالميـة، وغيرها من المشـاريع التـي يتسـم فيهـا العمـل بالصعوبـة والمخاطـر، ولا يقبل عليه مواطنو هذه الدول، ما يضطر الدول إلى اسـتيراد اليد العاملة من الدول الفقيرة ومستعمراتها بالخصوص التي كانت تعد بمثابة خزانات لليد العاملة والمجندين (ص٥٠).

بـدأت بريطانيـا في اسـتقدام اليد العاملـة، خلال الخمسـينيات والسـتينيات من القـرن الماضي، وارتباطـا بالخريطـة الاسـتعمارية لهـذه الدولـة، كان الوافـدون عليهـا مـن بلـدان مختلفـة؛ مـن باكسـتان وبنغلاديـش، ثـم التحـق بهـم وافدون مـن البـلاد العربية، ما جعـل التشـكيلة العرقية للجاليات المسـلمة، على الرغم من الإسلام الذي يوحدهـا، تتميز بعـدم التجانس اللغـوي والثقافي والمذهبـي الدينـي. (هنـاك اختلافـات واسـعة في هـذه التجربـة تعتمـد علـى الوضـع القانونـي والخلفية الطبقية والمهارات اللغوية والمسـتوى التعليمـي والحالـة المهنيـة والجنـس والعـرق وكذلك العقيدة) (ص٨٦)، ما جعل المسـلمين في بريطانيا يمثلون صورة مصغرة للتنوع الإسـلامي العالمـي، فهـم يتوزعـون في مجتمعـات متمايزة عرقيا، تتمسـك بمجموعة واسـعة مـن الولاءات الطائفية والمذهبية؛ سـنة، وشيعة، وإسماعيلية، ومتصوفة، وغيرهم الخ.

أدى الإسلام دورا في تماسـك العديـد مـن المسـلمين، لأنه تجاوز الحـدود العرقية واللغوية والسياسـية، بتجاهلـه الاختلافـات العقائديـة، فظهرت المساجد المؤقتة، والجمعيات التي تلبي حاجـات الرعاية الاجتماعيـة والروحية. ومع مرور

الوقـت عبّر المسـلمون عن اعتدادهم بأنفسـهم على الرغم من قلة عددهم. وبحلول السبعينيات ظهر خليط مـن المجتمعات لـكل منها منظمات تحمل بصماتها القومية والعقائدية، وكانت معنية بشـكل أساسـي بتعزيز الحيـاة الدينيـة وتقديم الدعم المعنـوي والمادي من خلال الحصول على الإعانات المحلية والوطنية والدولية. مع ذلك فإنه ينظر إلى المسـلمين، وخاصة في وسـائل الإعلام، باعتبارهم كتلة ثقافية واحدة.

إلا أن القيمـة التـي أضافتهـا الهجـرة للمجتمـع البريطانـي، والإسـهام الكبيـر للمهاجريـن في بنـاء بريطانيـا ونهضتهـا المعاصـرة، لـم يشـفع للمهاجريـن، وحصل قدر من التمييـز والحرمان في العمـل بشـكل عـام خاصة النسـاء علـى وجه الخصـوص، اللائـي قـد يظهـرن أكثر كمسـلمات بسـبب لباسهن، مما تسـبب في صعوبة الحصول على فرص العمل. (ص٨٦).

الهجرة وتوطين الإسلام

إن استقرار المسلمين في بريطانيا وبلدان المهجر أدى إلى توطين الإسلام فيها. فالمهاجرون وافدون حملـوا معهم دينهم، وأنجبوا أبناء لن يعرفوا بلدا آخر غير البلد الذي ولدوا فيه، وأنشؤوا مؤسسات لصيانة هويتهم الدينية، وإشباع حاجاتهم الثقافية والروحيـة، وتراعـي خصوصياتهـم، وتقـدم لهـم الحلـول الناجعـة للمشـاكل والنـوازل والقضايـا الطارئـة على حياتهم الجديدة في بلد غير مسـلم. وفي إثـر التوطين ظهرت مسـاجد، ومراكز فتوى، ومؤسسـات تعليـم، ومطاعـم حلال. ومـن خلال المهاجريـن وأبنائهـم، ومؤسسـاتهم، سـيعرف البريطانيون الإسلام، وسـيعجب به الكثير منهم، ويعتنقونـه، وسـيصبح الإسلام دينـا رسـميا في بريطانيا (ص٨٧).

توطيـن الإسلام في هـذه الـبلاد لم يكن سـهلا، لأن البريطانييـن كانـوا يحملـون في عقولهـم صـورا نمطيـة وأحكاما جاهزة عن الإسلام والمسـلمين، لكـن بفضل التفاعل الجيد، اسـتطاع المسـلمون أن يصححـوا الصـور النمطيـة، ويوجـدوا صـورا أخرى من تفهـم الإسلام وتقبله لدى البريطانيين الذين كانـت تربطهم بهم علاقات تواصل وتفاعل اجتماعـي. وكان للمسـلمين المتحليـن بـأخلاق رفيعـة، المقدريـن قيمـة الاخـتلاف، المحترمين ثقافـة وتقاليـد بلـد الضيافـة فرصـة تقديـم النمـوذج المقبول من المسـلمين. فمواطنيتهم، واندماجهـم المهني والاقتصـادي، ومصاهراتهم، ومعرفتهـم باللغـة الإنجليزية والثقافـة والتقاليد البريطانيـة مكنتهـم مـن أن يبرزوا المشـتركات الإنسانية بينهم وبين البريطانيين.

بين الاندماج والعزلة

يعـرف المؤلف الاندمـاج الاجتماعي بأنه: «القبول المتبـادل بيـن المهاجريـن وأبنـاء البلـد، تمنـح بموجبـه فرصـة المشـاركة الفاعلـة للمهاجرين، وإتاحة الفرصة لهم للتعارف واكتسـاب المهارات وتطويـر مؤهلاتهـم وتوظيفهـا في خدمـة البلـد الحاضن». (ص١٦٣)

ويتساءل المؤلف: هل يستطيع المسلم الاندماج في مجتمـع المهجـر؟ وتبعـا لذلـك هل يسـتطيع المحافظـة علـى التزاماتـه الدينية بمـا لا يتقاطع وثقافة بلد المهجر؟

ويستشـهد المؤلـف بعالـم الاجتمـاع دوركهايـم الـذي يـرى الاندماج نتاجًـا مباشـرًا لتفاعل أفراد المجتمـع، ولكثافـة تلك التفـاعلات التـي بينهم، وكذلـك نتاجـاً لقبول قيم وممارسـات مشـتركة وإنتاجها، وصياغة هدف مشترك يتجاوز المصالح المباشرة للأفراد. (ص١٦٥)

فبنـاء التفاعـل الإيجابي للمسـلمين في المجتمع البريطانـي كان موفقـا لأنـه مـن جهـة كان عمـلا طوعيا واعيا وبمبادرة شـخصية، من المسـلمين الوافديـن، كمـا كان بمبـادرة حكوميـة بإجراءات وقوانيـن منظمـة، تشـرف عليهـا جهـات إداريـة وحكوميـة في بلـد المهجـر. الغايـة منهـا تقريب

المسافة الاجتماعية والثقافية بين الجاليات، وتكييف المهاجرين ودمجهم في ثقافة وأنساق البلد الإدارية والسياسية. لخلق الانسجام بين الكتل السكانية الوافدة والأصيلة تجنبا لأي نوع من الأزمات الداخلية. (ص١٦٥)

فبريطانيا تتميز بأنها أكثر تقبلا للتعددية الثقافية القائمة على الهجرة، لذلك تسعى في سياستها إلى خلق التوازن بين الخصوصيات الثقافية للمهاجرين واحترام مبادئ حقوق الإنسان في آن، ومن أجل ذلك، تتبنى بريطانيا برامج خاصة لرعاية الجاليات، وفتح قنوات التواصل الحضاري معها. فرئيس الوزراء البريطاني لا يفوت مناسبة دينية دون أن يتوجه بالتهنئة للمسلمين، مع إقرار عطل للمسلمين تسمح لهم بالاحتفال بأعيادهم. وأنشأت الحكومة البريطانية عدة مؤسسات حددت وظيفتها في إدارة التفاعل الثقافي بين مختلف الهويات الثقافية، كما أصدرت قوانين تضمن حماية للأقليات الثقافية.

وقد واكبت كثير من الأحزاب، وهيئات المجتمع المدني هذه الإجراءات، فوضعت عملية إدماج المهاجرين في سلم أولوياتها. هذا الاندماج كان يلقى تخوف الجاليات من أن يؤدي إلى استهدافها بتذويب هوياتها، ما أدى إلى بروز ردود فعل انعزالية لدى بعض المهاجرين، تمسكا بهويتهم وحماية لخصوصياتهم، مع ما قد ينتج عن ذلك من حرمان من التفاعل مع المجتمع الحاضن، ويشكل صورة نمطية سيئة عن المسلمين، ويثير كثيرا من النقاش واللغط يمتزج فيه العلمي بالسياسي ويتصادم العنصري بالإنساني. وقد يؤدي إلى الإقصاء الاجتماعي للمسلمين عن نطاق المشاركة الرسمية السياسية والاقتصادية.

فهذه العزلة التي ظهرت كرد فعل لدى بعض الأفراد على عملية الاندماج الشاملة، قد تفتح الباب واسعا أمام إقصاء البريطانيين للمسلمين «إذا كانت العزلة فعلاً ذاتيا، من جانب المهاجر، فإن الإقصاء يأتي من الطرف الآخر بالضرورة»، ويعني «قضم حق بعض أفراد المجتمع في التمثيل السياسي الملائم، وفي التمتع المتساوي بمنافع المجتمع وثرواته، وفي كبح حقهم في التعبير عن هويتهم الثقافية والدينية عموما» وهذا أمر يتعارض مع العدالة والمساواة. (ص١٦٤)

الإسلاموفوبيا واليمين السياسي

إن التعايش أدى إلى التقبل الاجتماعي بين المهاجرين والبريطانيين، وأسهم في تقريب البريطانيين من الإسلام وبالتالي قبوله ونشره، ما أسهم بشكل قوي في مواجهة خطاب العنصرية والكراهية الذي يتبناه اليمين المتطرف بحركاته وأحزابه.

فالمسلمون الوافدون على المجتمع البريطاني نقلوا إليه أفكارا اقتصادية وثقافية جديدة، استعانوا في بثها وتثبيتها بمعرفتهم ببريطانيا وجغرافيتها ولغتها وتقاليدها، الأمر الذي أثار حساسيات المحافظين، وعدوا ذلك تحولا اجتماعيا وثقافيا غير مقبول. فظهرت مواقف ضد المسلمين، وبرزت توترات، ازدادت حدتها بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وعززها الكشف عن مؤامرات إرهابية؛ ضخّم الإعلام من أهوالها ومخاطرها، وربطها بالوجود الإسلامي في بريطانيا، ودعا إلى تشديد المراقبة الأمنية للدولة على المسلمين، الذين كل همهم هو مكافحة الحرمان الاجتماعي والعنصرية والإسلاموفوبيا، وهي أمور تثقل كاهلهم وتضيق عليهم فرص العيش الآمن. (ص٢٦٧)

إلا أن حياة وتفاعل المسلمين في بريطانيا، أوجدا شروطا للاندماج الموفق، منها ارتفاع نسبة فهم حقيقي وموضوعي للإسلام وقضاياه، وتبرئته من الإرهاب، إلى جانب النمو الديموغرافي للجالية المسلمة الذي يضمن تحقيق الثقل السكاني الإسلامي في بريطانيا، الأمر الذي سيؤثر حتما في نتائج الانتخابات والخريطة السياسية، إلى جانب صعود الكفاءات الاقتصادية والعلمية والسياسية. المسلمة، الأمر الذي سيؤدي إلى تحسين صورة

الرضا..
درجات وصور

بقلم: محمد خالد الكردي ـ لبنان

■ إنّها ليست مجرد عبارة تُقال عند ضيقٍ أو حرج، بل هـي عنوانُ إيمانٍ عميق، ورايةُ تسـليمٍ مطلقٍ لـربّ السـماوات، إذ نقول: «رضينا قسـمةً الجبّار فينـا»، وكأنّنا نوقّـع على صـكّ الطّمأنينة، ونكتب بشفاه الرضا سطورَ القناعة والثّبات.

حين يكون الرّضا عبادة، فالرّضا بما قسـم الله من أرفع درجات الإيمان، وأجمل صور العبوديّة، وأجلّ مقامـات القلـوب هـو أن ترضـى بما أنـت عليه، لا تنـدب فواتًا، ولا تحسـد ذا مالٍ أو جاه، ولا تجزع إن ضـاق بـك الحـال، لأنك تعلـم أن الجبّـار الذي قسم، هو الأعلم، والأحكم، والأرحم.

إنّ الرّضـا يُثمر سـرور القلب بالمقـدور في جميع الأمـور، وطيـب النفـس وسـكونها في كلّ حـال، وطمأنينـة القلـب عند كلّ مَفـزعٍ مُهلِعٍ من أمور الدّنيـا وبـرد القناعـة واغتباط العبد بقسـمةٍ من ربّه، وفرحه بقيام مولاه عليه، واستسـلامه لمولاه في كل شـيء، ورضـاه منـه بما يجريـه عليه؛ لهذا سميّ الرّضا: حسن الخلق مع الله.

لقـد صـدع القـرآن بالحقيقـة النّاصعـة، وأعلنهـا للقلوب المؤمنة: «نَحْنُ قَسَـمْنَا بَيْنَهُم مّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الدّنْيَـا» فقِسـمة الأرزاق ليسـت عبثًـا، وَليسـت بيـد أحد من البشـر، وإنّما هـي بيد من لا يظلم مثقال ذرّة.

«وَرَبّـكَ يَخْلُـقُ مَـا يَشَـاءُ وَيَخْتَـارُ، مَـا كَانَ لَهُـمُ الْخِيَـرَةُ» في كل آية، ينبض نداء: «دع الاختيار لمن يعلم، وسـلّم لمن خلقك وأحسن تصويرك، فإنّك لا تدري، وهو يعلم».

قال سيّد الرّضا، نبيّنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم: «مَن رضيَ فلَه الرّضا، ومن سـخط فله السّـخط». رواه الترمذي وقال حديث حسن.

وقـال أيضًـا: «ذاق طَعـمَ الإيمـان مَن رضـي بالله ربًا، وبالإسـلام دينًـا، وبمحمد نبيًا» رواه مسـلم؛ فبالرّضـا يُـذاق الإيمـان، وتُشـرق الـروح، ويهنـأ القلب.

قـال صهيب: بينا رسـول ﷺ قاعد مـع أصحابه، إذ ضحك فقال: «ألا تسـألوني مِـمّ أضحك». قالوا: يـا رسـول الله، ومِـمّ تضحـك؟ قـال: «عجبًـا لأمر المؤمـن، إنّ أمـره كلّـه خير، وليـس ذاك لأحد إلّا للمؤمـن إن أصابتـه سـرّاء شـكر فكان خيـرًا له، وإن أصابتـه ضـرّاء صبر فكان خيرا لـه». فالنّفس الرّاضيـة مطمئنّة مشـعّة تنعم بالسّـكون تتّسـع بشكل دائم.

لو وعت قلوبُنا قول النّبيّ ﷺ: عَجَبًا لأَمرِ المُؤمِنِ، إنّ أمـرَهُ كُلّـهُ خَيـرٌ» لَمـا جَـزِعَ قلـبٌ ولا طَغـى ولا تسَخّطَ لِسانٌ ولا بَغى وكان أَحَدُنا عَدلًا في سَرّائِهِ وضَرّائِه قد حَجَبَ نفسهُ عن الخلائِق، وأوقفها عَلى أمرِ الخالِق.

ما أجمل جبر الخواطر في قوله تعالى للحبيب ﷺ: {وَلَسَـوْفَ يُعْطِيكَ رَبّكَ فَتَرْضَى}. انظروا إلى روعة العطاء في تلك الآية، عطاءٌ مستمرٌ لا يتوقف.. حتى يصل بك إلى مقام الرِّضا.

قـال الإمام ابـن القيم رحمـه الله: «الرّضا باب الله الأعظم، ومستراح العابدين، وجنّة الدّنيا».

وقـال الإمام الحسـن البصـريّ رحمـه الله تعالى: «الرّضـا أن لا تتمنّـى غيـر مـا أنت فيـه، ولا تفرح بكثرة، ولا تجزع من قلّة».

هكـذا كانـت قلوبهم، قلوبٌ تسـكن في ظلّ الرّضا، مهما عصفت بها أقدار الحياة.

تأمّل حال عُروة بن الزّبير، حين بُتِرَت رجله ومات ولده في يومٍ واحد، فما قال إلا:

«اللّهـم لك الحمـد، إن كنْتَ أخـذْتَ فقد أعطيت، وإن كنـت ابتليْتَ فقـد عافيت، وقد كان لي أربعة أطراف فأخذْتَ واحدًا وأبقيْتَ ثلاثة، وكان لي أربعة أولاد فأخذْتَ واحدًا وأبقيْتَ ثلاثة، فلك الحمد على ما أخذتَ ولك الحمد على ما أبقيت».

أيُّ قلبٍ هذا؟! وأيُّ رضًا يسكن في تلك الكلمات؟!

الطّمأنينـة ليسـت حالـةً شـعوريّةً عابـرة، بـل مقامًـا إيمانيًـا يتولّـد من الرّضـا، والرّضـا بدوره ثمـرة الإيمـان بالقدر خيره وشـرّه؛ فلا تبحث عن الطّمأنينـة، بـل هيّئ نفسـك لها وفـق توجيه ابن القيّـم: «إنّ في القلب شـعثًا لا يَلمّه إلا الإقبال على الله».

قيـل ليحيى بـن معاذ رضـي الله عنه: متـى يبلغ العبـد إلى مقام الرّضا؟ قال: «إذا أقام نفسـه على أربعـة أصـول، فيقـول: إن أعطيْتَنـي قَبِلْـت، وإن مَنعْتَنـي رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أجبت».

كشفت العديد من الدّراسات النّفسيّة والطّبيّة أنّ مشاعر الرّضا والقناعة تُحدث تغيّرات فيزيولوجيّة ملموسة في الجسم، منها:

١. تقليـل إفراز هرمونـات التّوتّـر، فالتّوتّر والقلق يرفعـان مسـتوى الكورتيـزول في الـدّم، مـا يضرّ بالجهـاز المناعـي ويُسـهم في أمـراض القلـب والسّكري.

ومشاعر الرّضا والقبول تقلّل من إنتاج الكورتيزول، وتحفّز إفراز الإندورفين والسيروتونين (هرمونات السّعادة والرّاحة النّفسيّة).

٢. تحسـين جهـاز المناعـة: فقـد أظهـرت دراسـات في علـم النفـس العصبـي المناعـي (Psychoneuroimmunology) أنّ القناعـة والرّضـا ترفـع كفـاءة المناعـة، وتقلّـل معـدّلات الالتهاب في الجسم.

٣. نوم أفضل وصحّة قلبيّة أقوى، فالقلق يؤدّي إلى اضطـراب النّوم وارتفاع ضغط الـدم، بينما الرّضا والطّمأنينـة يعـزّزان النّـوم العميـق، ويخفضـان ضغـط الدّم، ويقلّـلان من خطر الإصابـة بأمراض القلب بنسبة تصل إلى ٣٠٪.

وفي دراسـة نشـرتها جامعـة هارفـرد: أكّـدت أنّ الأشـخاص الرّاضين عن حياتهم يعيشـون أحسن ويقـلّ لديهم احتمـال الإصابة بالاكتئـاب أو القلق المزمن.

والأطّباء النّفسيّون اليوم يؤكّدون أنّ أحد العوامل الجوهريـة للصّحّـة النّفسـيّة هـو قبـول الـذّات والواقع.

الإسـلام سـبق هذا بقـرون، حيـن دعا إلـى الرّضا بالقضـاء والقدر، وحثّ على شـكر النّعمة والصّبر على البلاء، فقال الله: «وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم، وعسى أن تحبّوا شيئًا وهو شرّ لكم».

فالإيمان بأنّ وراء كلّ قسـمة حكمة، يريح القلب، ويحـرّر الإنسـان مـن وهـم «لمـاذا لسـتُ مثـل فـلان؟»، وهذه إحـدى أقـوى الوصفات النّفسـيّة العلاجيّة اليوم!

إنّ الـذي يرضـى بقسـمة الجبّـار، لا يعـرف طعم الحسد، ولا تحرّكه أهواء الطّمع، يرى نعم الله عليه في كل لحظة، ويحمده على ما أعطى وما منع. هو غنيٌ وإن قلّ ماله، عزيزٌ وإن لم يحمل لقبًا، سعيدٌ وإن عاش في كوخ، لأنّ قلبه موصولٌ بربّه، ولسانه لا يفتر عن قول:

«رضينـا قسـمة الجبّـار فينـا، وعلمنـا أنّ ما عند الله خيـر وأبقـى». الرّضا ليس ضعفًـا، بل هو ثقة بربٍّ كريم، لا يُعطي عباده إلّا ما هو خير لهم، وإن خَفِيَـت عليهم الحكمة. فالقلوب المؤمنة لا تقول: «لمـاذا؟»، بـل تقول: «الحمد للـه، رضيت يا رب، فأرضني».

ولا يبلـغُ العبـد منزلة الرِّضا حتى يسـتقرّ في قلبه اليقين بأنّ عطاءات الله تجري في أشـياء تُمنع عنه، كما تأتي في أشياء تُمنح له.

فيا صاحب الهمّ، ويا مَن ضاقت بك السّبل، ردّدها مـن أعماق قلبـك: «رضينا قسـمة الجبّـار فينا»، فتكـون مـن الذين {رَضِـيَ اللَّه عَنْهُمْ وَرَضُـوا عَنْهُ} فإنّ فيها سـرّ الطّمأنينة، وجمال التّسـليم، وراحة العمر كلّه.

غنيت مكة

قصيدة لـ «شاعر مسيحي» تأثر بجلال منظر الحجاج

شرح: محمد وقيع الله

لمحة إلى الشاعر

■ مؤلف القصيدة سعيد عقل، شاعر ومفكر مسيحي عاش طوال دهره (١٩١٢ - ٢٠١٤م) مضطرب الفكر، محتدم العاطفة، متناقض الوجدان. ابتدر حياته داعية شُعوبيا متطرّفا حاملا لواء الفينيقية؛ جنسا ولغة وحضارة، وداعيا إلى فصل وطنه لبنان عن منتظم العروبة والإسلام، ثم ما لبث أن ختم حياته الصاخبة بتمجيد الغزاة لأرض الوطن.

نشر أول دواوينه الشعرية بعنوان (يارا) في لغة قديمة ميتة قال إنها سليلة اللغة الفينيقية، وقد اصطنع لها حروفا لاتينية وأخرى من إبداعه الخاص، ولما أخفقت تجربته المغامِرة ببوار ديوانه عاد يكتب شعره بلغة الضاد.

ولا ندري هل كانت لحظة صدق أن جادت قريحته حين انتاب قلبه العجب بجلال منظر حجيج بيت الله الحرام، أم أنه كان يتجمل إلى بني قومه. المهم أنه نظم هذه الأبيات الشوارد التي جابت الآفاق.

لمحة إلى القصيدة

قَرَن الشاعر طَواف الحجيج وصَلاتهم بمكة بمظاهر من سماء الكون وأرضه؛ فكأنه جعل الدنيا بأسرها تتواشج في عبادة خاشعة لله تعالى، ودعا الشاعر قراء القرآن المجيد أن يرفعوا أكفهم بالدعاء للمسلمين الذين رآهم من أهله الآن، وقال إن تلاوة كتاب الإسلام تبثُّ نسائم العطر على الفيافي والقفار.

وصوّر الشاعر صلاة الحجيج، وتلبيتهم، ودعاءهم بمكة، على أنها تشبه استسلام رمال الصحاري وقماريها لعبادة الله تعالى.

ودعا الشاعرُ اللهَ تعالى أن يُعزّ مواكب الحجيج من مختلف الأعراق والألوان التي لا تجتمع هكذا إلا في أيام الحج في مكة الحرام.

***

غَنّيتُ مَكةَ أهلَها الصِّيدَا
والعِيدُ يملأ أضلُعي عِيدا (١)
فَرِحُوا فلألأ تَحتَ كُلّ سَماً
بَيْتٌ على بَيْتِ الهُدَى شِيدا (٢)
وعلى اسمِ رَبّ العَالمَينَ عَلا
بُنيانُه كالشّهْبِ مَمدودا (٣)
يا قارئَ القرآنِ صَلِّ لهُمْ
أهلِي هناكَ وطَيِّبُ البِيدا (٤)

***

مَنْ رَاكعٍ ويَداهُ آنستَا
أنْ ليسَ يبقى البابُ مَوصودا (٥)
أنا أينَمَا صَلّى الأنامُ رأتْ
عيني السّماءَ تفتحتْ جُودا (٦)
لو رَمْلةٌ هتفتْ بِمُبدِعِها
شَجْواً لكنتُ لشَجْوِها عُودا (٧)
ضَجّ الحَجيجُ هناك فاشتبكِي
بِفَمِي هُنا يا وُرْقُ تَغريدا (٨)

***

وأعِزّ ربّي النّاسَ كلّهمُ
بيضاً فلا فرّقْتَ أو سُودا (٩)
لا قَفْرةٌ إلا وتُخْصِبُها
إلا ويُعطَى العِطْرُ لا عُودا (١٠)
الأرضُ ربّي وَردةٌ وُعِدتْ
بكَ أنتَ تُقطفُ فارْوِ مَوعودا (١١)
وجَمالُ وَجْهكَ لا يزالُ رَجَاً

يُرْجَـى وكلٌ سِـواهُ مَـردودا (١٢)

هوامش

(١)- الأَصْيَد: الذي لا يَسْتَطِيعُ الالتفاتَ، وقال الليث وغيـره: الصّيَـد: مصـدر الأَصْيَد، وهـو الذي يرفع رأسه كِبْرا، ومنه قيل للمَلِك: أَصْيَد؛ لأَنه لا يلتفت يمينا ولا شمالا، ويستعار المعنى للأَنَفَة عموما.

غَنّيـتُ مَكـةَ: أي غنيـت لمكة وغنيت بهـا. عادني الشيء عودا واعتادني: انتابني. العيد: ما يعتاد من نوب وشوق وهم ونحوه. قال تأبّط شراً:

يا عيدُ ما لَكَ مِن شَوقٍ وَإيراقِ
وَمَرّ طَيفٍ عَلى الأَهوالِ طَرّاقِ

وربما شـاء سـعيد عقل أن يعبّر عمـا يعتاده من شوق روحي إذ يرى ركب الحجيج!

(٢)- لألأ: أضاء ولمع. والضمير في (فرحوا) راجع إلى أهـل مكة؛ فمِن فرحهم برِقـت بيوتهم والتمعت؛ فانضاف بريق بيوتهم إلى بريق البيت العتيق.

(٣)- الشّـهْب: الجبـل السـامق المكلـل بالثلـج. والضمير في (بنيانه) راجع إلى بيت الهدى.

(٤)- صَـلّ: بمعنـى أدعُ، وأصـل الصـلاة: في اللغة الدعـاء. قـال تعالـى: (خُـذْ مِـنْ أَمْوَالِهِـمْ صَدَقَـةً تُطَهِّرُهُـمْ وَتُزَكِّيهِـم بِهَـا وَصَـلِّ عَلَيْهِـمْ إِنّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) التوبة: ١٠٣

•• قـال ابـن جرير في التفسـير: «(وَصَـلِّ عَلَيْهِمْ): وادع لهـم بالمغفرة لذنوبهم واسـتغفر لهم منها: (إنّ صَلاتَـكَ سَـكَنٌ لّهُـمْ): إن دعاءك واسـتغفارك طمأنينـة لهـم بـأن الله قـد عفـا عنهـم وقبِـل توبتهم:(وَاللّهُ سَـمِيعٌ عَلِيمٌ): والله سـميع لدعائك إذا دعـوت لهـم ولغير ذلك مـن كلام خلقه، عليم بما تطلب بهـم بدعائك ربك لهم، وبغير ذلك من أمور عباده».

الطّيّـبُ: خـلاف الخَبيـث. يقـال: أَرضٌ طَيّبة: للتي تَصْلُـح للنبات؛ وريحٌ طَيّبَةٌ: إذا كانت لَيّنةً ليسـت بشـديدة؛ وطُعْمـة طَيّبـة: إذا كانت حـلالا، وامرأَةٌ طَيّبـة: إذا كانـت حَصانـاً عفيفةً، وكلمـةٌ طَيّبة: إذا لـم يكن فيها مكروه؛ وبَلْـدَة طَيّبة: أي آمنةٌ كثيرةُ الخيـر، ونَفْسٌ طَيّبة: بما قُدِّرَ لها أي راضية؛ وتُرْبة طَيّبـة: أي طاهـرة، وزَبُـونٌ طَيّـبٌ: أي سَـهْل في مُبايعَته، وطعامٌ طَيّب: للذي يَسْتَلِذُ الآكلُ طَعْمه، والطِّيب: العطر.

بـادَ الشـيءَ: هلـك. والبَيْـداءُ: الصحـراء المهلكة، وكانت العرب تسـميها أيضـا المفازة تيمنا بالفوز والنجاة من وعثائها ومعاطبها ومهالكها.

دعا الشاعر قراء القرآن لكي يدعوا لصحراء الحجاز بكل معاني الزّكاء والطِّيب.

(٥)- آنس: أبصر وأحسّ، والمقصود هنا أحسّ.

(٦)- الجود: السخاء والكرم الزاخر.

(٧)- رملـة: مفرد رمـل، ويقصد بها الشـاعر ذرة الرمـل. الهَتْـفُ والهُتافُ: الصوت الشـديد العالي. يقال: هَتفْت بفـلان: أي دعَوْتُه، وهتفْت بفلان: أي مدَحْته. وفي حديث حُنيـن: قال اهْتِفْ بالأَنصار أي نادِهـم وادعُهم، وقد هَتف يَهْتِف هَتْفاً. وفي حديث بـدر: فجعـل يَهْتِـفُ بربّـه: أي يدعـوه ويُناشِـده. وهتَفتِ الحَمامة هتْفاً: ناحَتْ.

الشّجو: الهم والحزن، وشجاني يشجوني شجوا: إذا حزنه وأشـجاني. وقيل: شجاني: طربني وشوقني وهيجني.

(٨)- الأَوْرَق: الذي لونه بين السّواد والغُبْرَة، ويقال للحمامـة وَرقاء للونها. غَرِدَ الطائرُ أو الإنسـانُ: أي رفع صوتَه بالغِناءِ وطَرّبَ به.

مع ضجيج الحجيج بمكة دعا الشـاعر الحمائم كي تخلـط صوتها بصوته فيشـتبكان معـا؛ فهو معنى جِدٌ بديع وفريد.

(٩)- راع الشـاعرَ موكـبُ الحجيـج، وهـو يضـم بشـراً من كل الألوان؛ من الشّقر والحُمر والصّفر والسّـمر والخُضر، فسـأل الله تعالى أن يشـملهم بالعزّ أجمعين.

(١٠)- القَفْـرُ: أرض لا نبـات بهـا ولا مـاء. الخَصْـبُ: نقيض الجدب؛ وهو كثرة العشب.

دعا الشـاعرُ الله تعالى أن يعـمّ بالخصب كل قفر، وأن ينشـر على الدُنـى أريج الزهـر ونفح الغصن الرطيب.

(١١)- كأنمـا يومـئ الشـاعر إلـى أن ثمـار الأرض جميعها منح وعطايا خالصة من الرحمن للإنسان، ولـذا فهي تؤخذ باسـم الله تعالى، ثـم إنه ليرتجي منها المزيد.

(١٢)- رَجَاً: أي رجاءً. يشـير الشـاعر إلى نعمة رؤية الله تعالـى في الآخرة. قال الله تعالى: (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نّاضِرَةٌ إِلَى رَبّهَا نَاظِرَةٌ) القيامة: ٢٢ - ٢٣.

وقـال تعالـى: «لِّلّذِيـنَ أَحْسَـنُواْ الْحُسْـنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَـقُ وُجُوهَهُـمْ قَتَـرٌ وَلاَ ذِلّـةٌ أُوْلَئِـكَ أَصْحَابُ الْجَنّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». يونس: ٢٦

و(الْحُسْنَى) هي الجنة، (وَزِيَادَةٌ) أي النظر إلى وجه الله تعالى.

قـال صلى الله عليه وسـلم: «إذا دخـلَ أَهْلُ الجنّةِ الجنّةَ نادى مُنادٍ: إنّ لَكُم عندَ اللّهِ موعداً، قالوا: ألَم يبيّضْ وجوهَنا، وينجّنا مـنَ النّارِ، ويدخِلْنا الجنّةَ؟ قالوا: بلى، فيُكْشفُ الحجابُ، قالَ: فواللّهِ ما أعطاهُم شيئًا أحبّ إليهِم منَ النّظرِ إليهِ». رواه الترمذي.

الحج: ميلاد جديد

بقلم: أ. د. حسن عبد الرازق النقر

كل إنسان وفقه الله تعالى لأداء مناسك الحج بإخلاص وصدق، يرجع وقد امتلأ بشعور التغير والتجدد. وكم من الحجاج وصفوا شعورهم ذلك بأنهم: «ولدوا من جديد»، مصداقًا للحديث الشريف: روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه»، وفي رواية له أيضًا: «من حج هذا البيت فلم يرفث، ولم يفسق، رجع كيوم ولدته أمه» وعند مسلم نحوه. والقصد هنا بالطبع هو رجوع الحاج وقد غفر الله له ذنبه حتى صار كيوم ولدته أمه خاليًا من الذنوب.

والحج نقطة تحول في حياة المسلم. يذكر كاتب هذه السطور كيف خامره هذا الشعور بالتغير والتجدد عند العودة عقب أداء فريضة الحج عام ١٩٩٥م، تغير في الإحساس الداخلي وتحول في طريقة التفكير. كنت قبل الحج أنظر إلى العالم من خلال بلدي، وأصبحت بعد الحج أنظر إلى بلدي وإلى غيره بنظرة شاملة تبدأ من هذا العالم الذي ننتمي إليه جميعًا، والذي عايشته بكل روحي في الحج؛ عالم يضج بالتنوع والتعدد.

تعبيرًا عن الميلاد الجديد اعتاد حجاج الملايو قديما على تغيير أسمائهم بعد الفراغ من النسك. يأخذون بذلك شهادة من مفتي الشافعية أو إمام الحرم. الهولندي هورخرونيه الذي أقام في مكة وكتب مذكراته: صفحات من تاريخ مكة، وصف طرفًا من تقاليد حجاج الملايو وقد حضر معهم مراسم مقابلتهم المفتي، وكان الواحد منهم يجلس إليه فيأخذ المفتي بيده ويلقنه الشهادة ويمنحه اسمه الجديد، من الأسماء العربية. وقد يكتسي الحاج بثياب جديدة تكون غالبًا ثيابًا عربية.

ولعلنا نذكر نماذج من الناس على سبيل المثال؛ تغيرت حياتهم بالكامل بعد أدائهم فريضة الحج:

• معروف عن الأمريكي المسلم مالكولم أكس الذي حج عام ١٩٦٤ كيف وصف حجّه بأنه سبب تحول جوهري في رؤيته وفهمه للإسلام. ومن يقرأ مذكراته يقف على ذلك التحول الكبير حين يتكلم عن الحج بأنه وسّع نطاق تفكيره وأنعم عليه بنور البصيرة. في أسبوعين تغيرت شخصيته من شخصية متعصب عنيف إلى شخصية ذات اعتدال وفهم صحيح للإسلام. عرف عند مشاركته ملايين المسلمين من أجناس مختلفة بأنه لا اختلاف بين هؤلاء لا بالعرق ولا باللون، وقد تشاركوا بلبس واحد وعمل واحد وتوجهوا لرب واحد، يقول: أكلت من نفس الصحن، وشربت من نفس الكأس، الذي أكل منه وشرب منه إخواني المؤمنون وفيهم من كانت بشرته بيضاء وشعره أشقر وعينه زرقاء. أمة واحدة يعبدون إلهًا واحدًا ويتجهون إلى قبلة واحدة. لقد أعلن مالكولم إسلامه مجددًا وسمى نفسه الحاج مالك شباز.

• الفرنسي إتيان دينيه الذي اشتهر بعد إسلامه بناصر الدين دينيه كتب بعد انتهائه من المناسك إلى أخته يقول فيها: «هذه الرحلة تركت في نفسي انطباعات لم أشعر بما هو أسمى منها في كل حياتي، فلا أحد في العالم يمكن أن يعطي فكرة عما شاهدته من جوانب العقيدة من حيث المساواة والأخوة بين حوالي ٢٥٠ ألفاً من الناس من مختلف الأجناس كانوا مزدحمين الواحد بجانب الآخر». ومن أجمل ما تضمنه كتابه «الحج إلى بيت الله الحرام» قوله: «لو كان الإسلام الحقيقي معروفًا في أوروبا لنال العطف والتأييد أكثر من أي دين آخر يجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة في آرائهم وأفكارهم».

• وحكى عالم أنثربولوجي من المغرب أنه نوى السفر إلى الحج بغرض أكاديمي هو دراسة الحج من منظور الأنثربولوجيا فقط. لكنه انتبه إلى أن السفر إلى مكة ليس سفرا فحسب، بل أداء لفريضة دينية. إنه من حيث الإجراءات وأفعال السفر يشبه جميع الأسفار، لكن مع فارق أن مثيراته ومحفزاته يطبعها قلق من نوع خاص، هذا القلق الذي يميز رحلته إلى مكة هو الذي قاده إلى تأملات يقظة، وليس مجرد تحليلات نظرية. قاده الحج كما يقول إلى مفترق طُرق، فبينما كان يظن أنه سيقود الحج إلى عالم الأنثربولوجيا، وجد نفسه أمام حدث غير متوقع يطبع حياته ويدفعه نحو تساؤل حول هويته ومصيره!

برامج رابطة العالم الإسلامي لتعليم القرآن الكريم
وعلومه في جمهورية إندونيسيا

تصوير: نايف الزهراني

رابطة العالم الإسلامي
MUSLIM WORLD LEAGUE